للكاتب الإسباني

ميكال دي أونامونو



الخالة تولا

ترجمة: علي جابر

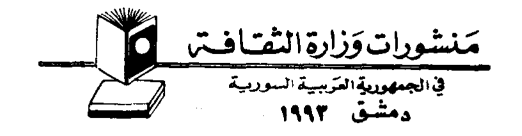
روايات عالمية «٣٩»

الخالة تولا

للكاتب الإسباني
ميكال دي أونامونو

الخالة تولا

ترجمة: علي جابر


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٣

العنـوان الأصلي للكتـاب :

LA TIA TULA

Miguel de Unamuno

الخالة تولا = La Tia Tula / ميكال دي أوتامونو ؛
ترجمة علي جابر . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٣ . ـ
١٤٤ ص ؛ ٢٤ سم . (روايات عالمية ؛ ٣٩) .

١ ـ ٨٦٣ أ و ن خ ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ أنامونو ٥ ـ جابـر ٦ ـ السلسلة
مكتبة الأسـد

الايداع القانوني : ع ـ ٩٣٥ /١٠/١٩٩٣

المقدمة

ما يمكن القارئ أن يستخلص من الروايات

كان لأحدهم أخ في مثل سني تقريبا ، وهو من كنت أحبه حباً شديدا ، مع انني كنت أحب الجميع ، والجميع كانوا يحبونني . كنا نجتمع معا نقرأ سير القديسين ، وكان يروعنا في ما كنا نقرأه عنهم من أن الغم والمجد يلازمانهم دائماً ، وقد يحدث أن نقضي مدة طويلة ونحن نتحدث في هذا ، كما كان يحلو لنا أحيانا كثيرة أن نردد كلمة دائما ، دائما ، دائما . وبسبب ترديد ذلك في صغري تعبد في نفسي بحمد الله صراط الحقيقة . وقد أدركت أن من المستحيل الذهاب الى حيث أستشهد في سبيل الله ، وقررنا أن نسلك سبيل النساك ، وعزمنا أيضا على أن نقيم صومعة في أحد الحقول فكنا نضع الحجر فلا تلبث أن تسقط فوقنا . وهكذا تعذر علينا أن نجد حلا لرغباتنا . وقد قوى ايماني الآن أن رأيت أن الله سرعان ما منحني ما أضعته بيدي .

* * *

أذكر أنني كنت في حوالي الثانية عشرة من عمري ، أو أقل بقليل ، عندما ماتت أمي . ولما بدأت أدرك ما فقدته ، ذهبت الى مثال

« لسيدتنا » وتضرعت اليها ، والدموع تملأ عيني أن تصبح أمي . وبدا لي ، وان كان ما فعلته يعد ضرباً من السذاجة انني في كل ما توجهت به الى العذراء العالية الشأن كنت أجدها بجانبي . والخلاصة فقد جذبتني اليها .

« من الفصل الأول من حياة الأم المقدسة »

« تريزايسوع » كتبته بيدها بناء على رغبة معرفها » .

تبارك الله دائما لما منحك من نعمة اذ حباك زوجة توفر لك الراحة . أهنئك كثيرا ، وانه لمما يعتريني وجودها لديك . وانني كثيراً ما أقبل يدي السيدة (دونيا ماريا) عدة قبلات ، ولها هنا عدد من مراكز العبادة . وكثيرا ما تمنينا أن نهنأ برؤيتها ، ولكن اذا كان سيتم ذلك وكان عليها ان تقوم بما هنا من الأعمال ، فاني أفضل لها أن تنال الراحة هناك على أن اراها تشقى هنا .

« من رسالة بعثت بها الأم المقدسة والخالة (تريزايسوع) من (آفيلا) الى ابن أختها (لورنزو دي سيبيدا) بتاريخ (١٥ كانون ثاني عام ١٥٨١) الذي كان في الهند في البيرو حيث تزوج من (دونيا ماريا دي هينوخوسا) التي هي السيدة (دونيا ماريا) التي يتحدث عنها » .

في الفصل الثاني من الحياة السالفة الذكر تقول الأم المقدسة (تريزايسوع) انها كانت مولعة بقراءة كتب الفروسية . كتبها ذات منحى آلهي — وفي احدى تراتيل تسابيحنا أسميناها (كيخوتيسا) .

« ما خلفته اسبانيا الخالدة من المعتقدات السماوية »

« التيهي غايتها . لا وجود الا للأبدي . الله أولا شيء » .

ما قد يتوهمه بعضهم فارقاً بين القديسة (تريزا ، ودون كيخوتي) هو ان هذا الفارس — خال ، خال ابنة الأخت الخالدة ، هو انه كان سخيفا وألعوبة ومهزلة الآباء والأمهات ، والخادمات ، والملكات . ولكن ، هل نجت القديسه (تريزا) في مثل هذه المواقف ؟ ألم يسخروا منها ؟ ألم ير بعض الكيخوتيين في أيامنا هذه ، وذوي النفوس السخيفة سخافة في مغامراتها الفروسية المتجولة وأعمالها ، وحياتها ؟

لا يتوهمن القارئ مما مر ان ما سيأتي ، وسيراه ، ويقرأه سيكون تعليقا على حياة قديسة اسبانيا . كلا . لا شيء من هذا . فنحن حين شرعنا في العمل لم نفكر في (تريزايسوع) ولا في (دون كيخوتي) . كان ذلك بعد فراغنا منه ، وعلقت بالنفس اثار أبانت لنا جدة في هذا الأنموذج حيث اكتشفنا جذور هذه الرواية النيقولية . لقد بدا خافيا علينا مغزاه العميق عندما باشرنا العمل . لم نتبين شيئا الا فيما بعد ولذا أجرينا حوله تعليقا وجدانيا نزيها ، فتبينت لنا الجذور (التريزية والكيخوتية) التي هي واحده . .

ترى هل هذا كتاب فروسية كما يرغب بعض القراء أن يتصوره ... قد يبدولبعضهم انه مغالاة في حياة القديسين . انه على كل حال رواية ، وهذا ما نؤكده له .

لم تكن تلك نظريتنا ، ولكنها كانت نظرية صديق فرنسي — زيادة في الدلالة — رأى ان الالهام — ومعذرة — في كتابنا « ضباب » مستمدة جذوره من كتاب (الحياة حلم) (لكالدرون) . ولكن هنا ، فاكتشافنا نحن هو ان جذور الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ هي (كيخوتية وتريزية) . ولا يعني هذا بالطبع ، ان ما يعرض هنا لايمكن أن يكون قد حدث خارج اسبانيا .

* * *

قبل أن أنهي هذه المقدمة أرغب في أن أدلي بملاحظة أخرى قد يجوز أن تبدو لبعضهم ضربا من محاولة في فقه اللغة ، وهي ليست سوى علم نفس بكل بساطة . وهل علم النفس غير ضرب من فقه وعلم اللغة ؟

* * *

الملاحظة هي انه لدينا كلمة ابوي ، وابوّة المشتقتان من (بانز) اب . وأمومي ، وأمومة المشتقتان من (ماتر) أم ، وأبوي ليس مساويا لأمومي ، ولا أبوّة مساويه لأمومة . ومن الغريب أن توضع كلمتا أخوي ، وأخوّة المشتقتان من Frater أخ وان لا يكون لدينا Sororidad, - Sororal المشتقتان من Sorar أخ . في اللغة اللاتينيه يوجد Sorarius أخت ، والفعل Soraruiare نشأ وربي معا .

قد يقولون أن Soraridad معادلة ل . Fraternidad ولكننا لانعتقد ذلك ، فلو كان في اللغة اللاتينية أصل كلمة ابنة يختلف عن كلمة ابن لوجب علينا أن نفرق بين البنوتين .

أخوة أطلقت على (أنتيجونا) الرائعة قديسة اليونان في أزمانها الضالة ، وابنة (أديبو) التي استشهدت حبا بأخيها (بولينيسيس) ، ولأنها صرحت باعتقادها بأن القوانين الوجدانية الأبدية التي تسود عالم الأموات ، عالم الخلود ، ليست كالتي يضعها الظالمون الطغاة ، امثال (كريونتي) .

عندما اتهم (كريونتي) ابنة اخيه (انيتجونا) في مأساة (سوفوكلس) بأنها اخلت بالقانون السامي عندما أقامت احتفالا جنائزيا لأخيها الذي قتل أخاه ، دار بينهما الحوار التالي :

(ا) لا يستقبح الاحتفاء بمن كان مشاركا في الأحشاء .

(ك) ألم يكن ذاك الذي مات قتلا مشاركا لك في الدم ؟

(ا) : مشاركا من ناحية الأب والأم ...

(ك) : وكيف تكرمين هذا المارق ؟

(ا) : ما كان الميت ليقول هذا .

(ك) : ولكنك تكرمينه كما تكرمين المارق .

(ا) : الم يكن الميت عبده وانما كان أخي .

(ك) : كان هذا يدمر الأرض ، وذاك كان يدافع عنها ...

(ا) : ومع ذلك فالعالم الآخر يحب المساواة ازاء القانون ...

(ك) : كيف يكون التساوي بين الحقير والشريف ؟

(ا) : من يدري اذا كانت هذه القيم محترمة هناك .

(انيتجونا . أشعار ٥١١ – ٥٢١) .

ألا يكون الذي سهل (لأنيتجونا) اكتشاف هذا القانون الخالد ، وهي المعروفة من سكان (طيبا) ومن خالها (كريونتي) انها فوضوية ، ألا يكون ذلك قرارا رهيبا من (الهادو) أخت والدها (أديبو) اللحمية التي شغلت وأياه Sorarïdad أخوة أيضا .

بادرة الأخوة (Soraora) التي أظهرتها (أنيتجونا) حين دفنت جثمان أخيها المتروك بلا دفن ، وانقاذه من نقمة خالها (كريونتي) رأى فيها هذا بادرة فوضوية . « ما من عمل أسوأ من الفوضى » – قال الطاغية مصرحا . (أنيتجونا . شعر ٦٧٢) فوضى ؟ حضارة ؟

(أنيتجونا) الفوضوية كما يراها خالها (كريونتي) الطاغية ،

هي أنموذج من الرجولة ، ولكن ليس من الانسانية . (أنتيجونا) أخت أبيه (أديبو) ، وبسبب ذلك فتكون عمة أخيه (بولينيسيس) تمثل الخدمات الدينية ، الديانة المنزليه ، البيتية ، بازاء المواطنية السياسية الظالمة ، الظلم المدني ، وربما أيضا الإلفة بالنسبة للحضارة . ولكن هل يمكن الحصول على الحضارة دون أن نمارس التآلف قبل ذلك ؟ هل تقوم مدنية أو حضارة على غير اساس في التآلف والعمل ؟

نتحدث عن الوطن ، وعن الأخوة العالمية ، ولكن أليس ضربا من التفقه في اللغة الظن ان نجاحاً قد يقوم على غير المادة والأخوة . قد تقع حروب بربرية مدمرة ، وكوارث غيرها بينما تكون اليعاسيب ملتفة حول الملكة لتأكل العسل الذي لم تصنعه تلك التي تسيطر على القفير .

حروب ؟ أول عمل حربي قام ، بناء على ماروته لنا الكتب التي نسميها مقدمة ، هو مقتل هابيل من قبل قابيل . كان موتا أخويا ، بين أخوين . أول عمل أخوي . وتقول سفر التكوين ان قابيل هو قاتل أخيه وكان أول من شيد مدينة أسماها باسم ولده — وكان من اخته — عناق (اينوك) « سفر التكوين ١٧ » وفي تلك المدينة ينبغي أن تكون قد بدأت الحياة المدنية ، والسياسية ، والأهلية ، والحضارية . ان عمل ، كما ترى ، مصدره قاتل أخيه . وبعد ذلك باجيال قال (لو كانو) وهو اسباني عن الحروب بين (سيزار) و(بومبيو) أنها أكثر من مدنية . — قال ذلك في شعره الأول فرساليا — يريد أن يقول انها أخوية . الحروب التي هي اكثر من مدنية هي أخوية .

سمى (أريسطوطاليس) الرجل (زون بوليتيكون) مبالغة في كلمة سياسي ، وهذا يعني حيوان سياسي وهذا ليس ترجمة — حيوان

يحاول ن يعيش في المدن ، أو في بيوت مقامة على الأرض ذات دعائم ، وهذا هو الرجل ، وفوق كل هذا « الذكر » . حيوان داجن ، مواطن أخوي ... وقاتل أخيه . ولكن هذا الحيوان المدني ألا ينبغي عليه أن يطهرّ بخدمة منزليه ؟ ولكن المنزل ، المنزل الحقيقي ، ألا يوجد في خيمة الراعي الضال التي يقيمها حيثما اتفق وعلى الطرق . لقد رافقت (أنيتجونا) والدها الأعمى الضال في طرق الصحراء الى أن توارى في (كولونا) . تعالها من مواطنية أخوية قابيلية اذا لم تكن هنالك الفة أخوية ...

ينتقل أساس المواطنة ، والالفة من يد ليد ، من أخوات الخالات ، أو من زوجات ذات نفوس عالية امثال (ابيساج) السلاميه التي يحدثنا عنها كتاب الملوك في الفصل الأول من الكتاب الأول ، تلك الفتاة التي حملوها الى الملك الشيخ داؤد الذي كان على وشك الموت لكي تمسك عليه الحياة ، اذ تغطيه وتدفئه في فراشه وهو نائم . وقد ضحت (أبيساج) بأمومتها وظلت عذراء لأجله ذلك لأن داؤد لم يعرفها،وكانت سببا في أن يقوم سليمان ابن خطيئة داؤد مع (بتزابي) الزانية بقتل (ادونياس) أخيه ابنداؤد (وهاجيت) لأنه أراد أن يتزوج (أبيساج) آخر ملكة كانت مع داؤد ظناً منه بأن هذا يورثه ملك داؤد .

لكننا سنخصص (لابيساج) هذه ، وما كان منها، وما عنته ، كتاباً كاملا سوف لن يكون بالطبع رواية ولا نيفولا .

والآن سيكون بوسع القارئ الذي سيقرأ هذه المقدمة — التي لا حاجة لها لفهم ما سيأتي — أن يستعلم من الخالة (تولا) اذا كانت قد عرفت شيئا عن القديسة (تريزا ، ودون كيخوتي) ، كما انها قد تكون لا تعلم شيئا عن (أنتيجونا) اليونانية ، ولا (أبيساج) .

في كتابي (هابيل سانتشس) حاولت أن أنقب في زوايا ومخابئ القلوب ، وسراديب الأرواح حيث لا يرغب الكثير من أبناء الفناء في الوصول اليه . يظنون ان في هذه السراديب موتى ، وان من الأفضل عدم زيارتهم . ومع ذلك فهؤلاء الموتى هم الذين يحكموننا . تلك هي ورثة (قابيل) . وفي هذه الرواية حاولت أن أنقب في سراديب ومخابئ أخرى . وحيث أنني لم أعدم من قال لي ان ذلك عمل غير انساني ، فسوف لن أعدم من يقول مثل ذلك بمعنى آخر . بدا ذلك لبعضهم غير انساني لأنه رجولي ، وأخوي . وقد يبدو له هذا نسائي وأخوي . Sorarial دون أن يكون بوسعنا أن ننكر أن الذكر يرث النزعة النسائية من أمه ، والمرأة ترث الرجولة من أبيها . وهل اليعسوب لا يحمل جانباً من النحلة ، وهذه لا تحمل شيئا من اليعسوب ؟ واذا شئت ألا يوجد نحلات رجولية ، ويعاسيب نحلية .

وهذا يكفي فأنا لا أرغب في وضع رواية على رواية .

في مدينة (سلامانكا) يوم زواج سيدتنا .

عام الرحمة الف وتسعماية وعشرون .

* * *

— ١ —

رواية

الخالة تولا

الى (روزا) وليس الى أختها (جرترو ديس) التي كانت تخرج وإياها من البيت بصورة دائمة ، كان (راميرو) يوجه نظراته المتعطشة ، أو على الأقل هكذا كان يعتقد كل من (راميرو) (وروزا) عندما يتقابلان .

كانت الأختان اللتان كانتا تترافقان دائما ، وان كانتا غير متحدتين دائما ، تشكلان زوجا يبدو انه لن يفترق ، وانهما من درجة واحدة . كان جمال (روزا) الرائع المثير ، زهرة من اللحم تتفتح أمام السماء والنور والهواء هو الذي يسترعي اليهما الانظار لأول وهلة . الا ان عيني (جرترو ديس) الجادتين هما اللتان كانتا تقفان حاجزا أمام فضول العيون التي كانت توجه نظراتها اليهما . وقد يحدث أن يصوغ بعضهم عبارات نابية يرغب في توجيهها اليهما الا انه كان يقف عند حده اذ يصده ما يراه في عيني (جرترو ديس) من الوقار الصامت ، وكأنه يقول له : « مع هاتين لا يجوز اللعب » .

واذا ما تأملنا مليا وعن قرب فان (جرترو ديس) كانت أكثر اثارة للميل والرغبة في الاستمتاع ، في حين كانت أختها (روزا)

تنشر أمام النور والهواء جمال جسدها وغضارته ونضارته . لقد كانت أشبه بصندوق مغلق ومختوم يتوقع العثور فيه على كنز من الحنان ، واللذاذة الخفية .

ولكن (راميرو) الذي كانت عيناه تحملان روحه انه يرى غير (روزا) واليها وحدها اتجه كليا .

قالت هذه ذات يوم لأختها : — أتدرين ان (راميرو) قد كتب لي ؟

فأجابتها أختها قائلة : — أعرف ذلك . وقد رأيت الرسالة .

— وكيف رأيتيها ؟ وهل تتجسسين علي ؟

— وهل يمكن أن لا أراها . أنت تعلمين انني لا اتجسس على شيء . وأنت قلت ما قلت كي تقولي شيئا ...

— الحق معك يا (تولا) . سامحيني .

— أجل . أكرر قولي مرة أخرى . أنت كذلك . أنا لا أتجسس . ولكني لا أكتم شيئا أبدا . لقد رأيت الرسالة .

— لقد علمت . لقد علمت .

— لقد رأيت الرسالة ، وكنت أتوقع ورودها .

— حسن . وما هو رأيك في (راميرو) ؟

— أنا لا أعرفه .

— ولكن ما من حاجة لمعرفة الرجل كي تكون الفتاة رأيها حوله .

— أجل . أنا أحتاج .

— ولكن ، كما يبدو للعين .

— حتى ولا هكذا أستطيع أن أكون رأيا حوله دون أن أعرفه .

– أليس لك عينان في وجهك ؟

– ربما ليس لي كما تعتقدين ... فأنا كما تعلمين قصيرة النظر ...

– ادعاء فارغ . ولكن ، تأملي انه شاب نشيط .

– هكذا يبدو .

– وجذاب .

– حسبه أن يكون جذابا بالنسبة لك .

– ولكن هل تظنين انني أجبته موافقة ؟ أي بنعم ؟

– أنا أعلم انك ستقولين ذلك له في النهاية ، وهذا يكفي .

– لايهم . وينبغي ان ادعه ينتظر الى أن يضجر .

– ولماذا ؟

– ينبغي اعلاء الشأن .

– لن تعلي شأنك بمثل ذلك يا (روزا) . وهذا الدلال قبيح جدا .

– بشكل لو أنك أنت ...

– لم يتوجه اليّ .

– ولو انه توجه اليك ؟

– لا يُسأل عما لم يكن . عما لم يحدث .

– ولكن لو انه توجه اليك أنت ، فيما كنت ستجيبين ؟

– ألم أقل انه يبدو شابا نشيطا ، وجذابا ، وبسبب ذلك كنت انصرفت لدراسته .

– وأثناء ذلك لو جاءت أخرى ...

– هذا ممكن الوقوع .

– اذن يا عزيزتي بوسعك أن تستعدي .

– أجل . لكي أكون خالة

– وكيف خالة ؟

– خالة لأولادك يا (روزا)

– آه ، ما أغرب طباعك . – قالت ذلك بصوت متكسر .

– هيا ، يا (روزا) لا تكوني هكذا . – قالت ذلك ثم طبعت قبلة على خدها .

– ولكنك قد تعودين ...

– كلا . لن أعود . كلا .

– حسن ، وبماذا أجيبه ؟

– قولي له ان نعم .

– ولكنه قد يظن انني سهلة الانقياد جدا ...

– اذن اجيبيه بالرفض .

– ولكن ...

– اذا كنت ترينه نشيطا وجذابا ، فقولي نعم ، واقلعي عن هذا الدلال لأنه قبيح . قولي له نعم ، فقد لا يكون من السهل أن تحصلي على ما هو أفضل . لابأس (براميرو) ، فهو ولد وحيد .

– أنا لم أقل شيئا من هذا .

– ولكن أنا ذكرت ذلك . والأمر واحد ...

– ولكن ، ألا يقولون انني أفتش عن عريس ؟

– وحتما ما يقولون .

– مرة أخرى ، يا (تولا) ؟

– للمرة المئة أقولها . ألا تبحثين عن عريس ؟ ومن الطبيعي أن تحصلي عليه . اذن لماذا خلقك الله جميلة جذابة هكذا ؟

– كلا . جلفة .

– أنت تعلمين انني لا أبحث عن الأجلاف . وسواء بدا لنا قبيحاً أم جميلا فان قدرنا هو اما الزواج أو الدير ، وأنت لست معدة لكي تكوني راهبة . لقد سواك الله للدنيا وللعائلة لكي تكوني أم عائلة ... لا خادمة للتماثيل . قولي 'ه اذن . نعم .

– وأنت ؟

– وأنا ؟

– وأنت بعدئذ ...

– دعيني أنا .

وفي اليوم التالي لهذا الحوار الذي دار بين الأختين كانت أواصر المحبة قد توطدت بين (روزا وراميرو) وكان هذا سببا في أن تعيش (جرترو ديس) حياة الوحدة .

كانت الأختان تعيشان معا اذ كانتا يتيمتين من الأب والأم منذ صغرهما ، وكانتا تسكنان مع خالهما وهو كاهن الا انه لم يكن ينفق عليهما اذ كانتا تملكان ملكية تفي بما فيه الكفايه لأن تكونا في سعة من العيش . لكنه كان يلقي عليهما مواعظ صالحة عندما كانوا يجلسون حول المائدة لتناول الطعام ، ويترك لهما أمر تسيير أحوالهما الطبيعية . كانت تعاليمه مستقاة من الكتب التي كان يقتبس منها مواعظه المقتضبه .

كان (دون بريميتيفو) يقول مخاطبا نفسه : « لماذا أتدخل في

ميولهما الخاصة ؟ الأفضل أن لا أتحدث كثيرا اليهما في مثل ذلك لأنه يفتح عيونهما ... يفتح عيونهما ؟ ان العيون مفتوحة ، وبصورة خاصة ، عيون النساء . نحن الرجال لا نفقه شيئا من هذه الأشياء . وعلى الأخص نحن رجال الدين . كل ما تقوله لنا الكتب مجرد ترهات . ثم هذه ، (تولا) تخيفني . . . أثناء وجودها تنعدمجراءتي ... أصبح لا أجرؤ ... وأيأسئله تسألها هذه الصغيرة . وعندما توجه الي نظرات جادة ، جادة... من تلك العينين الحزينتين – عيني أختي ، وأمي خلدهما الله في جنانه . تلك النظرات الحزينة التي تتغلغل في القلب ... تلك النظرات الجادة الشديدة الجد ولكنها بمؤخر عينيها تبتسم ، وكأنها تقول لي : « لا تكثر من السخافات يا خال » . تلك الطفلة الشيطانه . اني لا أزال أذكر اليوم الذي أصرت فيه على أن ترافق أختها لتسمع تلك الموعظة . يا لها من فترة مرت بي يا يسوع القدسي . كل شيء كان يحملني على أن أصرف نظري عنها كيلا تقطع علي الموعظة . ولكن لا . فقد كانت تجتذب عيني مثلما كان يحدث لي مع أمها المقدسة أختي ، ومع أمي المقدسة أحلها الله في أمجاده . لم أقوقط على أن أعظ كما أهوى في حضورهما ، ولذا قلت لهما أن يتجنبا حضور مواعظي . كانت أمي تحضرها ولكن متخفية دون أن تنبئني بذلك ، وتقف مستترة بالعامود كي لا أراها ، ولا تأتي على ذكر أي شيء عن الموعظة . ومثلها كانت تفعل اختي ، لكنني كنت أعرف ما كانت تفكر به مع انها عميقة الايمان بالمسيحية . أنا أعلم انها كانت تقول : « هراء رجال » . وهذا ما تفكر فيه هاته الصبية . هذا ما أنا واثق منه . كلا ، كلا . أأعظ أمامها ؟ أنا ؟ أنصحها ؟ لقد أفلتت منها ذات مرة عبارة « هراء رجال » . لم تكن موجهة لي ، لكنني أدركها ...

كان السيد المسكين يشعر باحترام عميق لابنة اخته (جرترو ديس) . وكان يدرك ان المعرفة جاءت الى فرعه عن طريق النساء . وان أمه كانت جرثومة الذكاء في البيت الذي نشأ فيه . وان أخته كانت كذلك في بيتها بعد ذلك . وبالنسبة لابنة أخته الثانيه (روزا) فحسبها رفقة أختها دليلا وحامية . ولكن : « تبارك الله ما أروع الجمال الذي خصها الله به — هكذا كان يقول الشيخ . هذه الفتاة اذا لم تتزوج زواجا ممتازا ، فيكون شباب اليوم ليس في وجوههم عيون » . وذات يوم وقد ظنت (جرترو ديس) وحدها مع خالها على المائدة قالت له بعد ان ذهبت (روزا) متظاهرة بتوعك صحتها : — أرغب في أن أنقل اليك خبرا هاماً جدا يا خالي .

— هاماً جدا ... هاماً جدا ... — قال المسكين وقد توهم انه تبين في مؤخر عيني ابنة أخته بسمة ساخرة .

— أجل هاماً جدا .

— حسن ، قولي كل ما تعلمينه يا ابنتي . فنحن الآن منفردين لتقديم النصائح .

— القصة هي ان (روزا) خطيبا .

— ولا شيء غير هذا ؟

— ولكنه خطيب جاد يا خالي .

— هيا اذن لنعقد لهما الزواج .

— بانطبع .

— وأنت ، كيف ترينه ؟

— حتى الآن لم تسألني من هو .

– وماذا يهمني . فقلما أعرف أحدا ؟ وأنت كيف ترينه ؟ أجيبي .

– وأنا أيضا لا أعرفه .

– ولكن ألا تعلمين من هو ؟

– أجل ، أنا أعرف اسمه والى أي عائلة ينتمي و...

– يكفي . كيف ترينه ؟

– انها صفقة جيدة (لروزا) . وسيتحابان .

– ولكن . هل هما غير متحابين حتى الآن ؟

– ولكن ، هل تظن يا خالي ان الحب يبدأ أولا ؟

– ولكن هكذا يقال يا صغيرتي . وان الحب يقع بسرعة البرق ...

– كلام هذا يا خالي .

– هكذا اذن . يكفي أن تهوايه أنت .

– (راميرو) ... (راميرو كوادرادو) ...

– ولكن . هل هو ابن (دونيا فيننسيا) ؟ انتهينا . لا مجال بعد ذلك للكلام .

– الى (راميرو) يا خالي صوبت (روزا) نظرات عينيها ، وهي تظن انه أحبها ...

– وسيكون ذلك (يا تولا) ، سيكون ذلك .

– هذا ما أتوقعه يا خالي . سيكون ذلك . فهو رجل خجول وصادق الكلمة ، وسيقع في حب تلك التي وعدها ، وأظن أنه ليس من أولئك الذين يتراجعون عن وعودهم .

– وهي ؟

– من ؟ أختي ؟ ستقع هي كذلك .

– أنك لتعرفين أشياء أكثر من (سان اغوستين) يا بنيتي .

– هذا لا يُعلم يا خالي .

– اذن فليتزوجا . وسأباركهما وقضي الأمر .

– فلنبدأ . يجب أن يتزوجا عاجلا قبل أن يتراجع ...

– ولكن هل تخشين أن يتراجع الفتى ؟

– أنا أحاذر الرجال دائما يا خالي .

– أولا تحاذرين من النساء ؟

– مثل هذه المخاوف يمكن توقعها من الرجال . لست أقصد الغض من شأن الجنس القوي ... ألا يقال هكذا ؟ أنا أقول ان الثبات والمتانه هما في جانبنا .

– لو ان جميع النساء كن مثلك يا صغيرتي اذن لكان في مقدوري أن أصدق هذا القول . ولكن ...

– ولكن ، ماذا ؟

– انت يا (تولا) مستثناة .

– لقد سمعتك يا خالي تقول أكثر من مرة ان الاستثناءات تؤكد القواعد .

– انك لتذهلينني ياصغيرة .. حسن سنزوجهما ولو كان ليس مخافة أن يتراجع هو ... أو هي ...

وتجلى في نظرات (جرترود يس) ظل عاصفة . ولو انه كان باستطاعته أن يقرأ في ذلك الصمت اذن لتبين أن في مطاوي ودهاليز روحها يتردد صدى معلنا « أو هي » ...

ولكن ما الذي جد (لراميرو) يا ترى في علاقاته الشكلية مع (روزا) ، اذ قد أصبح على وشك أن يدخل البيت ؟ يكثر من الامهال والبرودة في علاقاته .

— اسمعي يا (تولا) . أنا لا أستطيع ان أفهمه . كل يوم ازداد جهلا به . يبدوا انه دائما مشغول ، وكأنه يفكر في شيء آخر . أو شخص آخر — من يدري ؟ أو هو كمن يتوقع مباغتة . وعندما أحدثه وأستعجله يبدو كمن لا يرغب في الأمر ، في النهاية التي يجب أن تبلغها علاقاتنا ، ويتظاهر وكأنه لا يسمع ، أو كأنه يخاطب امرأة أخرى ...

— ذلك لأنك تخاطبينه كمن لا ترغب في الأمر . خاطبيه كالراغبة .

— هو ذلك ، وأن يعلم انني أستعجل أمر زواجي .

— ليظن ماشاء . أو ليس هذا الواقع ؟

— ولكن أتتصورين يا (تولا) انني متحمسة لكي أتزوج ؟

— أتحبينه ؟

— لا علاقة لمثل هذا ...

— أتحبينه ، قولي .

— ولكن اسمعي ...

— ولكن لامجال لا سمعي ... هل تحبينه ؟ قولي لا أو نعم .

فأطرقت (روزا) برأسها ونظرها الى الأرض واصطبغ وجهها بحمرة الخجل ، وغمغمت قائلة بصوت متكسر باك :

— ما أغرب أطوارك يا (تولا) تقفين موقف المعرف .

فأخذت (جرترودیس) بأحدى يدي اختها ورفعت بالثانية رأسها وصوبت نظرتها الى عينيها ، وقالت لها :

– عشنا لوحدنا يا أختي .

– والخال ؟

– لقدقلت عشنا لوحدنا.نحن النساء عشنا لوحدنا . وخالنا المسكين قديس ، لكنه قديس كتب . وهو على كل حال رجل ، وان كان كاهناً .

– ولكن صرحي ...

– وهو بسبب ذلك ربما كان قليل المعرفة . وفضلا عن ذلك فقد ينسى . وهذا الواقع . نحن نعيش وحدنا كما قلت لك . والآن ما يجب أن تفعليه هو أن تعترفي هنا . اعترفي لنفسك . هل تحبينه ؟ أكرر سؤالي .

فشرعت (روزا) المسكينة تبكي .

– هل تحبينه ؟ – ارتفع صوت الأخت للمرة الثانيه يقول – وتوهمت (روزا) ان ذلك السؤال الملحق الذي يبدو انه آت مما وراء الحياة ، حياة الطهارة المشتركة . وانه صوتها هي ، أو لعله صوت أمهما أيضا .

– أجل . أعتقد انني سأحبه ... كثيرا ... كثيرا . – قالت ذلك بصوت خفيض وهي تجهش بالبكاء .

– أجل ستحبينه . وهو سيحبك أكثر .

– وكيف عرفت ؟

– أنا أعلم أنه سيحبك

ــ اذن لماذا يبدو لاهيا عني . لماذا يتهرب من مواجهة الحديث عن الزواج ؟

ــ سأحدثه بذلك يا (روزا) ، دعي أمره لي .

ــ أنت ؟

ــ نعم أنا . هل من غرابة في الأمر ؟

ــ ولكن ...

ــ أنا لا يجبهني الخوف الذي يصدك

ــ ولكن ، سيقول انني أتلهف للزواج .

ــ كلا ، كلا . لن يقول ذلك ــ سيقول اذا طاب له ان يقول انني أنا التي يوافقني أن تتزوجي ليسهل السبيل أمام طالبي ، أو لكي أصبح وحدي الآمرة الناهية في هذا البيت . وكما تعلمين فكلا القولين مجرد هراء . ليقل ما يشاء ولكني سأمهد السبيل وأزيل العقبات .

فألقت (روزا) نفسها بين ذراعي أختها التي أسرت لها في أذنها :

ــ واخيراً عليك أن تزدادي حبا له . أليس كذلك ؟

ــ ولماذا تقولين لي هذا القول يا (تولا) ؟

ــ لأن هذا هو واجبك .

وفي اليوم التالي حين جاء (راميرو) لزيارة خطيبته وجد نفسه مع الأخرى ، مع أختها . فتجهم وجهه ، ووقف مترددا ، فالنظرات الحادة الحزينة التي تنطلق من عيني الفتاة جمدت الدم في قلبه .

فقال يسأل دون أن يُسمع : ــ أين هي (روزا) ؟

لقد خرجت (روزا) من البيت ، والآن أنا التي ستتحدث اليك .

ــ أنت ؟ ــ قال بشفتين مرتعشتين .

– أجل . أنا .

– تبدين خطرة يا آنستي . – قال ذلك جاهدا في ان يبدو ضاحكا .

– يقولون ان هذا الخطر ولد معي . يؤكد خالي انني ورثته عن أمي،أخته ، وهي ورثته عن جدتي،أمه . هذا ما لاأدريه كما لا أعيره كبير أهمية . الأمر الذي أعرفه هو ان الأشياء ينبغي أن تكون بسيطة مستقيمة ، وبدون خداع .

– لماذا تقولين ذلك (يا تولا) ؟

– ذلك لأنك تتهرب من حديث الزواج مع أختي . هيا ، قل ، لماذا ؟ فعلت حمرة الخجل وجه الفتى ، وشعر وكأن طعنة مفاجئة قد أصابته .

– أنت طلبت أن تكون لك علاقات معها لغاية شريفة كما يقول السذج .

– (تولا) .

– (لا تولا) ولا خلافها . أنت أقمت علاقات معها لتكون لك زوجة ووالدة لأبنائك ...

– ولكن ، أنت تستعجلين الأمور ... ثم اجتهد مرة أخرى في أن يبدو ضاحكا .

– يجب أن تستعجل الأمور لان الحياة قصيرة .

– تقولين الحياة قصيرة ونحن على أبواب الحادية والعشرين من عمرنا .

– هي أقصر مما تظن . حسن اذن . هل تنوي أن تتزوج (روزا) ؟ قل لا ، أو نعم .

– ولكن أي شك في ذلك . – وحين قال ذلك ارتعش كامل بدنه .

– ولكن اذا كنت تنوي الزواج منها فلماذا تواصل التأجيل ؟

– مازلنا صغار السن ...

– ذلك أفضل .

– يجب أن نختبر أنفسنا ...

– ماذا ؟ ما هذا ؟ وأي اختبار ؟ أتظن انك ستصبح أكثر معرفة بها بعد عام ؟ ذلك أسوأ ... وأسوأ .

– واذا فيما بعد ...

– ألم تفكر بهذا عندما طلبتها ، وقبل أن تدخل البيت ؟

– ولكن (يا تولا) ...

– (لا تولا) ولا خلافها . هل تحبها أم لا ؟

– أبوسعك أن تشكي في ذلك (يا تولا) ؟

– قلت لك (لا تولا) ولا خلافها . هل تحبها ؟

– الأمر واضح انني أحبها .

– اذن ستزداد حبا لها . ستكون زوجة صالحة لك . ستكونان خير زوجين .

– بنصائحك أنت ...

– ما من نصائح . حسبي أن أكون خالة طيبة .

وبدا على (راميرو) انه كان لفترة قصيرة مع نفسه وكمن يفتش عن شيء ، وأخيراً هتف بما يشبه اليأس قائلا :

– حسن يا (جرترودیس) سأصرح لك بكل الحقيقة ...

– ليس لديك من الحقائق ما تقوله لي – قالت تقاطعه بحدة – لقد صرحت لي بأنك تحب (روزا) ، وانك مصمم على أن تتزوجها . وما بقي من الحقائق ستقوله لها بعد الزواج .

– ولكن هنالك أشياء ...

– كلا . كلا . ما من شيءٌ لا يقال للزوجة .

– ولكن (يا تولا) ...

– كلا . (لاتولا) ولا خلافها قلت لك اذا كنت تحبها فتزوجها . واذا كنت لا تحبها فأنت هنا غريب في هذا البيت .

وخرجت هذه الكلمات باردة من فمها بينما ظل قلبها ساكنا ، وأعقب ذلك صمت ثلجي والدم الذي كان من قبل هادئا انتشر وعلا وجه الأخت . وأثناء هذا الصمت المبشر كانت تسمع ضربات قلبها .

وعينت حفلة العرس في اليوم الثاني .

– ٣ –

أقر (دون بريميتيفو) الزواج وباركه . بارك زواج (راميرو وروزا) . ولم يبد السرور على أحد مثل (جرترودیس) لدرجة ان ما ظهر عليها من السرور كان مفاجئة لعارفيها ، مع ان البعض رأى فيه شيئا غير طبيعي .

وذهب العريسان الى بيتهما . وكانت (روزا) تطالب بوجود أختها لكن هذه كانت تجيب ان الوحدة هي خير ما يقدم للمتزوجين الجدد .

– ولكن يا حبيبتي الأمر بالعكس . فأنا لم أتألم لبعدك مثل الآن . لقد أدركت الآن حبي لك . وأخذت تعانقها وتقبلها .

ـ أجل ، أجل . ـ كانت تجيب (جرترووديس) وهي تبتسم ابتسامة غامضة . لابد لهناءتك من شهود يرونها ، وهذا ينميها ويضاعفها .

ومن حين لآخر كانت تزورهما وتشاركهما على الغذاء . وكانت أختها تحتفي بها كثيرا وتظهر الحنو لها ولزوجها الذي كان يبدو خجلا أمام ابنة حميه .

ـ اسمعي . ـ قالت (جرترووديس) ذات يوم لاختها بمناسبة مظاهر الحفاوة والحنان ـ لا تظهري نفسك غبية . يبدو وكأنك أنت التي ابتكرت حياة الأزواج .

وذات يوم رأت جرو كلب صغيرا في البيت .

ـ وما هو هذا ؟

ـ انه جرو كلب يا حبيبتي . الا ترينه ؟

وتحتل مقعدا محترما . أتحبين أن تريها ؟

ـ هذا صحيح . ـ قال (راميرو) موافقا .

ـ حسن ، وسننقلها من هناك .

ـ كلا يا حبيبتي . سأحتفظ بها ...

ـ أجل ، لتلعب بها ابنتك ...

ـ ما أغرب ما يخطر على بالك يا (تولا) ... قالت ذلك وقد أحمر وجهها .

ـ كلا . لك أنت تخطر الغرائب كقصة الجرو .

فهتفت (روزا) محاولة التخلص من ذلك الحديث الذي أزعجها :

ـ وأنت أليس لديك لعبة ؟ هل أهديتيها ، أم أتلفتيها ؟

ـ فأجابت أختها بوضوح : كلا ، ولكني أحتفظ بها .

ـ محفوظة حتى اني لم أتمكن من أن أراها أبدا ...

— ذلك لأن (جرترو ديس) تحتفظ بها لنفسها . — قال (راميرو) دون أن يدري ما قال .

— الله أعلم لماذا أحتفظ بها . إنها تميمة لطفولتي .

كان (دون بريميتيفو) الطبيب أقل الجميع زيارات لمنزل العريسين الجديدين . وكان يقول : « الحادي عشر لا يزعج » .

وكانت الأيام تمر متشابهة في كلا المنزلين . وكانت (جرترو ديس) قد قررت أن تقلل من زياراتها لأختها ، الا ان هذه كانت تأتي اليها كلما مر يومان دون أن يتواجها .

— يا لك من سيئة يا حبيبتي . أو ان الجرو مازال يزعجك وجوده ؟ اذا كان ذلك هو السبب فسأطرده . لماذا تدعيني وحدي ؟

— وحدك ؟ وحدك (ياروزا) وزوجك ؟

— ولكن عليه أن يذهب لأعماله ...

— وكيف جاء ؟

— لقد عثرت عليه شريدا في الشارع ويكاد يكون على وشك الموت ، فأشفقت عليه ، وجئت به الى هنا وأطعمته ، وعالجت ما كان يؤلمه ، وها أنت ترينه هنا . قالت ذلك ثم شرعت تمسد له شعره وتقبل ما بين عينيه .

— ولكن ، اسمعي (يا روزا) . يبدو لي أنه يجب عليك أن تهدي الجرو لأن وجوده قد يجر ما يعد كارثة .

— أهديه ؟ ولماذا ؟ اسمع (يا تيتي) . — وعندما قالت ذلك ضمت الجرو الى صدرها — تقول لي كي اطردك . الى أين ستذهب يا مسكين ؟

— هيا ، هيا لا تكوني طفلة . ولا تحمليه هكذا . الا يرى زوجك مثل رأيي ؟

– طبعا متى قلت له ذلك . مادمت أنت الدالمة ...

– دعك من هذه الأشياء . وتخلصي من هذا الجرو .

– ولكن لماذا ؟ أتعتقدين ان (راميرو) ستأخذه الغيرة ؟

– ما ظننت قط (يا روزا) أن الزواج يورث الحبل هكذا .

وعندما جاء (راميرو) واطلع على المشادة التي دارت بسبب الجرو لم يجرأ على الموافقة على رأي أي من الاثنتين ، بل قال ليست المسألة ذات أهمية .

فقالت (جرترو ديس) : – كلا لا أهمية لها ، لكنها بالنسبة لبعضهم ذات أهمية قصوى ، اذ تتسم بسمات الطفولة . وحتى أكثر من ذلك (فروزا) خليقة بأن تحضر الى هنا تلك اللعبة التي مازالت تحتفظ بها منذ الصغر ، وقد أعطيت كل واحدة منا واحدة ، وهي خليقة بأن تضعها على مقعدها ...

– بالتأكيد فهي هناك في القاعه ، مرتدية ثوبها الفاخر .

– أو هو يبتكرها ...

– ولكن أتظنين انه يتعمد تركي ؟ هل تعلمين شيئا ؟ قولي (ياتولا) بحياة أكثر من تحبين . بحياة أمنا . قولي .

– كلا ، ولكنك تضجرين من سعادتك ووحدتك . ستطردين الكلب ، والا فقد تحميه . وهذا أسوأ .

– لا تقولي مثل هذا الكلام .

– قد تحميه . – أجابتها أختها بحرارة .

وحين قالت لها ذات يوم انها أهدت الكلب ، ابتسمت(جرترو ديس) ابتسامة صريحة ، وأسرت لها في أذنها وهي تداعبها كما تداعب

الطفلة ، « خوفا من الوحام » . وحين سمعت منها كلمة أجل بما يشبه الهمس ، عانقت أختها بحرارة لم تكن تعتقد انها خايقة بها .

– منذ الآن سوف لن تشعري بالضجر من السعادة ولا من الوحدة ، وستعددين أعمال زوجك . هذا ما كان ينقصك .

– أليس هذا هو الذي ينقصك يا ترى ؟ ... أليس كذلك يا أختاه ؟

– من قال لك ذلك ؟

– اسمعي ، مع فرط غباوتي ، فقد عشت بجانبك .

– ولكن ، دعينا من المزاح .

ومنذئذ أخذت (جرترو ديس) تواصل زياراتها لمنزل أختها .

– ٤ –

سهرت (جرترو ديس) وحدها بجانب أختها (روزا) لأن الولادة كانت عسيرة . وظلت محتفظة بشجاعتها ورباطة جأشها مما حمل البعض على القول انها خبيرة في مثل هذه المواقف . وقد بلغت الأزمة حداً خشي على الوالدة والولد من الموت . وقد طلب الزوج اخراج الجنين حيا أو ميتا .

فهتفت (جرترو ديس) قائلة : – ميتا ، هذا لن يكون .

– ولكن ألا ترين انه اذا مات الجنين فان الأم ستظل حية لتنجب جنيناً آخر ، في حين ان موتها ليس كذلك ؟

وخطر (لجرترو ديس) خاطر بسرعة البرق وهو أن تقول له : سيظل هنالك أمهات كثيرات . لكنها أمسكت نفسها ، وقالت بالحاف :

ـ ميتة ... كلا . أبداً . ويجب أن ننقذ روحاً .

والنفساء المسكينة لم تعلم شيئا مما كان يدور حولها ، إلى أن أخرجت الى الحياة طفلا بعد عناء شديد .

فتناولته (جرترودیس) بلهفة وغسلته ، ولفته بملفاته كما لو كان هذا عملها طيلة حياتها .

ـ أنت قابلة الولادة . ـ قال لها الطبيب .

وحملت الوليد الى والده الذي كان قابعا في احدى الزوايا ، يتأكله الغم الشديد والخوف والندم على جريرة اقترفها ، متوقعا ورود نبأ موت زوجته .

ـ ها هو أول أولادك فتأمله كم هو جميل .

وحين رفع الوالد نظره وقد انزاح ما كان يثقل قلبه من الغم لم ير سوى عيني ابنة حميه اللتين كانتا تشعان نورا جديدا ، ولكنه أشد بهاء من ذي قبل . وحين أراد أن يقبل تلك اللفيفة من اللحم التي تقدمها كولد له لامس خده الملتهب خد (جرترودیس) .

فقالت له هذه بهدوء ـ اذهب الآن واشكر زوجتك ، وشجعها واطلب سماحها .

ـ أطلب سماحها ؟

ـ أجل أطلب سماحها .

ـ ولماذا ؟

ـ أنا أعرف ، وهي أيضا تعرف . وبالنسبة لهذا . ـ قالت ذلك وضمت الطفل الى صدرها الذي كان يعلو وينخفض ، فأنا سأتولى أمره ، أو سيكون في مقدوري أن أجعل منه رجلا .

كانت الدنيا تدور (براميرو) . وفي أعماق روحه كان يتردد صدى متسائلا : « من هي الأم ؟ » .

وبعد قليل وضعت (جرترود يس) الطفل بجانب أمه التي كان يبدو انها ترقد مجهدة . وكان لون وجهها قد أصبح أبيض بلون الثلج . لكن (روزا) فتحت عينيها فتلاقت نظراتها بنظرات أختها . وعندئذ سرى في أعضاء الأم الجديدة معين من جراءة وانتصار ، ثم نادت أختها بصوت ضعيف : — (تولا) .

— ها أنذاهنا (يا روزا) . سأظل هنا . استريحي الآن . عندما تستريحي ترضعين الوليد كي يكف عن البكاء . ولا تشغلي بالك بشيء آخر .

— ظننت انني سأموت (يا تولا) . والآن أشعر كأنني ميتة . ويغمني كثيرا حال (راميرو) .

— اسكتي . لقد أمر الطبيب ان لا تكثري من الكلام . كان (راميرو) المسكين ميتا أكثر منك الآن . تشجعي ، والى دفعة أخرى .

فابتسمت المريضة ابتسامة حزينة .

قالت (جرترود يس) في مؤتمر عائلي صغير : — سندعو هذا باسم والده (راميرو) ، والمقبلة سنسميها (جرترود يس) باسمي .

فقال (دون بريمتيغو) : — أراك تفكرين باخرى ، وأختك المسكينة كانت على حافة الموت ؟

فأجابت : — وما العمل ؟ ولماذا أقدما على الزواج اذا كان لا ؟ أليس كذلك يا (راميرو) ؟ .— قالت ذلك وحدقت بنظرها فيه .

وازاء هذه النظرة قال الزوج كمن فوجئ : — المهم الآن هو ان يتحسن حالها .

– من هذه الأوجاع تتحسن صحة المرأة بسرعة .
– لقد أجاد الطبيب حين قال يا عزيزتي : يبدو انك ولدت قابلة .
– كل امرأة تولد أما ، يا خال .

قالت ذلك بلهجة عائلية فخمة جعلت (راميرو) يشعر بقلق غامض وندامة غريبه : « هل سأحب زوجتي كما ينبغي ؟ »

– هذا ما كان يقوله لنفسه .

وقالت له ابنة حميه : – الآن (يا راميرو) بوسعك أن تقول لك زوجة .

ومنذئذ لم تتأخر قط (جرترو ديس) عن بيت أختها يوما واحدا . وكانت هي التي تبدل الثياب للطفل وتنظفه وتعتني به الى أن أصبح باستطاعة أمه أن تفعل ذلك .

وسرعان ما تحسن حال الأم . وعاد لها جمالها بأكثر روعة . فضاعفت حنانها على زوجها ، وحتى انها توهمت انه ينظر اليها نظرة احتقار .

وذات يوم قال لها زوجها : – لقد خفت على حياتك . وكنت على حافة اليأس ، ونادما .

– نادما . لماذا ؟

– لوداهمك الموت ، اذن لأطلقت على نفسي عياراً ناريا

– ولماذا ؟ « من أشياء الرجال » . وماذا ستقول (تولا) لكن ذلك مضى وانقضى ، وأنا أعرف ما هو .

– ألم تصبحي متمرنة يا (روزا) ؟

– متمرنه ؟ – قالت ذلك وطوقت بذراعها عنق زوجها وضمته

اليها بكل قواها ، وقالت له على مقربة من اذنه ولهاثها يكاد يحرقه . — الى المرة المقبلة (يا راميرو) ، الى المرة الثانية الآن ، أصبحت أحبك ولو أمتني .

وأثناء ذلك كانت (تولا) تلف الطفل محاذرة أن لا يفقد — وهو الساذج — مشاعر حنان وحب والديه .

كان هم الخالة أن تحمل الطفل منذ صغره وقبل أن يدرك أي مظهر من مظاهر الحب الذي انبثق عنه . ثم علقت في عنقه تعويذة العذراء المقدسة ، العذراء الأم محتضنة طفلها .

وكثيراً ما قالت لأختها عندما كانت تراها تتضجر من اسكات الطفل ، أو من وضعه في اللفائف : — دعيه لي (ياروزا) ، دعيه لي ، واذهبي لتسلية زوجك .

— ولكن ، يا (تولا) : ...

— أجل ، عليك أنت يقع عبءُ العناية بالاثنين ، أما أنا فبهذا وحده .

— يا لها من طريقة للتعبير يا (تولا) .

— لا تكوني طفلة . هيه . لقد أصبحت أما تامة . واحمدي الله لأننا نستطيع أن نتوزع العمل .

— (تولا) ، (تولا) .

— (راميرو) ... (راميرو) .... (ياروزا) .

وكانت الأم تتجاهل الاأنها كانت تذهب الى حيث بكون زوجها . وهكذا مضى الوقت ، وجاء وضع جديد ، وكانت المولودة أنثى

— ٥ —

بعد انقضاء مدة قصيرة على ولادة الطفلة عثروا على (دون بريمتيغو) الطيب ميتا ، فغسلته (جرترو ديس) — لأنها كانت تريده أن ينزل الى قبره نظيفا — وكفنته بمنتهى العناية التي أظهرتها عندما لفت الطفل الحديث الولادة بلفائفه . وانفردت بجثمان العجوز الطيب في الغرفة وطفقت تبكيه كما لم تكن تصدق انها ستقوى عليه . وكانت تقول مخاطبة نفسها : « ما كنت أعتقد إنني أحبه كل هذا الحب . كان قديسا طيبا . بجهد قليل جعلني أعتقد انني بشر تعقل . لقد كان بسيطا » .

قالت لأختها : — كان بمثابة والد لنا . ولم نسمع منه قط كلمة أعلى من الأخرى .

فهتفت (روزا) قائلة : — الأمر واضح . اذ كان يسمح لنا بأن نفعل كل ما نرغبه من رغباتنا .

— لأنه كان يعلم (يا روزا) ان وجوده كان كافياً لأن يجعل رغباتنا صالحة . كان أبا لنا . وقد هذبنا ، وكان اشعاع حياته البسيطة كافياً لذلك ...

— أجل ، هذه هي الحقيقة . — قالت (روزا) وقد تورمت عيناها من البكاء . على مثل بساطته لم أر مخلوقا قط .

— كان ضرباً من المستحيل أن نجد بيتا نربى فيه أكثر طهارة من هذا البيت .

— وما تعنين بهذا (يا تولا) ؟

— أعني انه دون أن يوجه لنا كلمة واحدة ملأ حياتنا بتقديس

الأم العذراء المقدسة ، وكذلك بتقديس أخته أمنا ، وأمه جدتنا . أتذكرين عندما كان يحملنا على أن نصلي ليلا كيف كانت تتغير نبرات صوته عندما كان يبلغ في صلاته مقطع « أبانا ، أو أفي ماريا » في توسله لراحة روح أمنا ، ثم عندما يتوسل لراحة روح أمه جدتنا اللتين لم نعرفهما ؟ في هذه الصلاة وهبنا أما . وفي هذه علمك أن تكوني كذلك .

— وكذلك أنت (يا تولا) . — هتفت (روزا) وهي تشهق بالبكاء .

— أنا ؟

— أجل أنت . من هي الأم الحقيقية لأولادي اذا لم تكوني أنت ؟

— دعي عنك هذا الآن . وتأملي هذا الصمت المقدس . لقد قيل لي ان النساء المسكينات كن يبكين أحيانا عندما كن يسمعن عظاته دون أن يتبين كلمة واحدة من كلماته . وهذا ما أدركه . فصوته كان كافيا لنشر جو من الهدوء الوقور والحبي . والآن الى الصلاة (يا روزا) .

فركعت الأختان بجانب نعش خالهما المتوفي وأقبلتا تصليان نفس الصلاة التي طالما رافقتاه في ادائها طيلة أعوام ، وكررتا « أبانا ، وأفي ماريا » لراحة روح أمهما أبديا ، ولراحة ذلك المسجى . وأضافتا « أبانا وأفي ماريا » لراحة المولود السعيد . وكانت ألسنة أنوار الشموع المضاءة على كلا جانبي الجثمان تقع على جبينه فيتلمع ويبدو أبيض كلونها هي ، وكأنها كانت ترافق الأختين في صلاتهما . وكان جو من السلام الصميمي ينبعث عن ذلك الميت . ونهضت الأختان من ركوعهما على الأرض ، فقبلت (جرترودیس) جبين العجوز ، وتلتها (روزا) . ثم تعانقتا وعيونهما تسح الدموع .

وأسرت (جرترودیس) لأختها قولها : — الآن الى مزيد من الحب ازوجك ، والعمل على اسعاده ... ثم لمنحنا المزيد من البنين .

— والآن أظنك ستأتين لمساكنتنا . — أجابتها (روزا) .

— كلا . هذا لا — أجابت الأخرى على الفور .

—وكيف لا ؟ تقولين ذلك بحدة ...

— أجل ، أجل يا أختي . أغفري لي هذه الحدة . أغفريها . هل تغفريها ؟ وأبدت حركة كمن ترغب أن تجثو على ركبتيها أمام جثمان الميت .

— لا تكوني كذلك (يا تولا) . ليس بهذا القدر . تظهرين بعض التسرعات ...

— هذا صحيح . ولكن ستغفرينها لي أليس كذلك (يا روزا) ؟ ستغفرينها .

— عن مثل هذا لا يُسأل . ولكن ستأتين الينا .

— لا تلحي (ياروزا) ، لا تلحي ...

— وكيف ؟ ألا تأتين لعندنا ؟ هل تتركين أبناء أختك ، أو على الأصح أبناءك ؟

— ولكني لم أتركهم يوما واحدا ...

— هل تأتين ؟

— سأفكر في الأمر (يا روزا) . سأفكر ...

— حسن . سوف لن ألح .

ولكنها ما لبثت الا أياما قليلة حتى أخذت تلح فأجابت (جرترودیس) مدافعة : — كلا ، كلا لا أرغب في ازعاجكم ...

– أتقولين أزعاجنا ؟ ما الذي تقولين (يا تولا) ؟

– الأزواج يريدون البيت .

– أولا يجوز أن يكون لك أيضا ؟

– كلا ، كلا . سأحد من حريتك وان كنت لا تعتقدين ذلك . أليس كذلك (يا راميرو) ؟

– كلا . كلا . أنا لا أرى ذلك ... غمغم الزوج بهذه الكلمات وقد بوغت شأنه كل مرة توجه اليه ابنة حميه سؤالا على غير توقع .

– أجل (يا روزا) . ان زوجك يعلم ذلك وان لم يصرح به . ان الزوجين ، وخصوصا اذا كانا فتيين مثلكما ، وفي فترة الانجاب يحتاجان للانفراد . وأنا الخالة سآتي في أوقاتي لتعليم أولادكما كل ما لا تقوين على القيام به .

وظلت تواصل الزيارات، وأحيانا مبكرة جدا فتجد أن الأطفال قد غادروا فراشهم ولكن الأبوين لم يكونا كذلك . « عندما أقول انني سأفعل ، يكون النقص هنا » كانت تقول لنفسها .

– ٦ –

كان الولد الثالث للزوجين يوشك ان يرى النور . وكانت (روزا) تتذمر من الخصوبة قائلة : « سننؤ تحت كثرة الأولاد » . وعلى ذلك كانت أختها تجيبها : – « اذن لماذا تزوجت ؟ »

كان الحمل مضنكا للوالدة ، وكان يضطرها الى اهمال أمر ولديها الآخرين أكثر من ذي قبل . وهكذا أصبحا بعهدة خالتهما ، وسرها كثيرا أن تتركهما لها ، وحتى توصلت في بعض الأيام أن تصحبهما معها الى البيت المنفرد ، منزل العزباء حيث كانت تعيش

مع خادمة خالها (دون بريميتيغو) العجوز ، وهناك كانت تبقيهما وكان الطفلان يلتفان بحنان أعمى حول تلك المرأة الصلبة .

كان (راميرو) يبدو منزعجا في الأشهر الأخيرة من حمل زوجته الأول ، الأمر الذي كان يضجر (جرترود يس) ، أما الآن فالحال أشد . .

— ما أزعج هذا وأثقله . — كان يقول .

— لك ؟ — كانت ابنة حميه توجه اليه هذا السؤال دون أن ترفع نظرها عن ابن أختها أو ابنة أختها التي قد تكون تحتضنها .

— نعم لي ، فأنا أعيش في حالة قلق خائفا من كل شيء .

— هاه . وفي النهاية سوف لن يكون شيء فالطبيعة حكيمة .

— ولكن السيل يتدفق غزيرا على الحوض ...

— آه ، يا بني ، لكل شيء محاذيره . والكل وضع معاكساته .

كان (راميرو) ينكمش عندما تدعوه ابنة حميه بيا بني ، وكانت تتهرب من مناداته باسمه ، في حين كان يسره هو أن يدعوها باسمها (تولا) بصورة عائلية .

— كم كنت مصيبة (يا تولا) بعدم الزواج .

— أصحيح ؟ — قالت ذلك وسددت نظراتها الى عينيه .

— أجل ، صحيح . المتاعب كثيرة والمخاطر أيضا .

— وهل يا ترى تعلم اذا كنت لا أنوي أن أتزوج ؟

— الأمر واضح . بسبب السن .

— ولكن لماذا سأبقى ؟

— اني لا أرى منك ميلا لذلك ...

– ميلا للزواج ؟ ما هذا ؟

– حسن . هو ان ...

– هو انك لا تراني افتش عن عريس . أليس كذلك ؟

– كلا . ليس كذلك .

– أجل هو ذاك .

– لو رغبت ما كان ليعوزك دون شك ...

– ولكني لا أستطيع البحث عن العريس . لست رجلا . وعلى المرأة أن تنتظر الى أن تصبح مختارة . أما أنا ففي الحقيقة أشتهي أن أختار لا أن أصبح مختارة .

– ما هذا الذي تتحدثان به ؟ – قالت (روزا) وقد دنت منهما وألقت بجسمها على المقعد منهوكة القوى .

– لا شيْ . انها شروح يشرحها زوجك حول فوائد الزواج ومضايقاته .

– لا تبحث بمثل هذا (يا راميرو) . قليل ما تعلمونه انتم الرجال عن مثل هذا . نحن اللواتي نتزوج وليس أنتم .

– ولكن يا امرأة .

– صه ، وتعال ساعدني فلست أقوى على الوقوف الا بجهد . سأستلقي . وداعا (تولا) . أتركهم لك .

فتقدم زوجها منها واحتضنها بين ذراعيه ، فجلست ووقفت بجهد . ثم وضعت ذراعها على كتفه وحنت رأسها حتى كاد يلاصق رأسه وأمسكت يسراه بيسراها ومشت ببطء متكئة عليه وهي تتوجع . وكانت (جرترو ديس) وهي تجلس ابني اختها على ركبتيها ، تراقب

مشي أختها المجهد ، وهي متعلقة بزوجها كالأشجار المتسلقة . فامتلأت عيناها الحزينتان الشديدتا الجد والصفاء بالدموع ، وقد احتضنت الصغيرين والصقت خديها بخديهما . وعندما رأى (راميرين) الصغير بكاء خالته (تيتا تولا) شرع هو يبكي أيضا .

— هيا . لا تبك . وقم بنا نلعب .

لقد أضعف (روزا) حملها الثالث .

— الدي سبق احساس سئ (يا تولا) .

— لا تقيمي وزنا للتنبوآت .

— ليست تنبوآت . وانما أنا أشعر وكأن الحياة تفارقني .

لقد نزف دمي .

— سيعود من جديد .

— على الأقل سوف لن أقوى على ارضاع الطفل . المرضعات (يا تولا) هذا ما يخيفني .

وكان هذا هو الواقع . فخلال أيام قليلة أستبدلوا ثلاث مرضعات . كان الأب متهيجا . وكان يقول انه سيعاملهن بالضرب . وكانت الأم تنهار .

— هذا سيزول . — قال الطبيب ذات يوم .

كان (راميرو) يطوف في البيت هائما على وجهه كالأبله وقد تملكه ندم غريب وهياج مفاجىء . وذات ليلة قال لابنة حميه :

— ولكن يبدو ان (روزا) لم تفعل شيئا من أجل الحياة . لقد حشت رأسها بالاعتقاد بأنها على وشك أن تموت . وواضح أن هذا

يقود للموت . لماذا لا تعملي على بعث الحيوية في نفسها وتقنعيها بالحياة ؟

– أنت يا بني ، أنت زوجها . فاذا لم تنعش أنت في نفسها شهية الحياة فمن ذا الذي سينعشها عندها ؟ وليس ما تعانيه من ضعف وانهاك هو الذي سيقودها الى الموت ، وانما تفكيرها بأنها على وشك أن تموت . فها أنت ترى حتى انها سرعان ما تتعب من الأطفال ، ولا تسأل الا عن أمور الروح .

كانت (روزا) المسكينة تعيش وكأنها في حلم ، وفي شبه غيبوبة متواصلة ، وترى الأشياء ملفوفة بالضباب .

وذات أمسية انفردت بأختها وقالت لها بعبارات متقطعة ، ولهاث ضعيف وقد أمسكت يدها :

– اسمعي (يا تولا) . أنا على حافة الموت ولا علاج لي . اترك لك أولادي فلذات كبدي . وأدع لك (راميرو) الذي هو بمثابة ولد آخر . صدقيني انه طفل آخر . طفل كبير وقلب ، ولكنه طيب طيب أكثر من الخبز . لم يسبب لي ما أكرهه . ها أنا أدعهم لك (يا تولا) .

– لا تهتمي (يا روزا) . فأنا أعرف واجباتي .

– واجبات ... واجبات ...

– أجل ، أنا أعرف محبتي . ما زلت على قيد الحياة فلن يعدم بنوك أمّا .

– شكرا (يا تولا) . شكرا لك . هذا ما أطلبه منك .

– اذن لا تشكي في ذلك .

– معنى ذلك أن أولادي سوف لن يربوا في كنف زوجة أب ؟

– ما تعنين بذلك (يا روزا) ؟

– ذلك لأن (راميرو) سيتزوج ثانية ... وذلك امر طبيعي ... فهو مازال شابا ... وأنا أعلم انه لا يستطيع البقاء بدون امرأة ... أنا أعلم ... لأنه ...

– ماذا تريدين أن تقولي ؟

– ستكونين أنت زوجته (يا تولا) .

– ألم أقل لك هذا (يا روزا) . والآن في مثل هذا الظرف لا استطيع أن أكذب – ألم أقل لك انني سأتزوج زوجك اذا هو فقدك . لقد قلت لك أن أولادك سوف لن يصبحوا بغير أم ...

– كلا . لقد قلت لي انهم لن يربوا في كنف زوجة أب .

– حسن . سوف لن يربوا في كنف زوجة أب .

– وهذا لن يتأتى اذا أنت لم تتزوجي (راميرو) . أنا أحس بالغيرة ، من أخرى ، أجل . ليكن لك ، ليكن لك . فقد يكون ...

– ولماذا سيتزوج ثانية ؟

– آه ، (يا تولا) . أنت لا تعرفين الرجال . أنت لا تعرفين زوجي ...

– كلا ، أنا لا أعرفه .

– ولكن أنا أعرفه .

– من يدري ...

وأغمي على المسكينه .

ونادت بعد ذلك زوجها . وعند خروجه من المخدع كان مضطربا أصفر اللون كالأموات .

كان الموت يشحذ منجله في زاوية من بيت (روزا ورامبرو) . وبينما كانت حياة الأم الشابة تتسرب قطرات كان لا مفر من البحث عن مربية ومرضعة للطفل الذي يعاني الجوع . وكانت (جرترودیس) ، وقد تركت أختها راقدة في فراشها تحتضر ببطء ، لا تنفك تبحث عن ثدي رحيم لابن أختها .

حاولت خداع جوعه ، فوضعت في فمه رضاعه .

– وهذه المرضعة ؟

– لا تستطيع أن تأتي قبل نهار الغد يا آنسه .

– اسمعي (يا تولا) . – قال (راميرو) .

– دعني ، دعني واذهب الى جانب سرير زوجتك التي ستفارق الحياة بين حين وآخر . اذهب فهنالك مكانك ، ودعني والطفل .

– ولكن (يا تولا) .

– دعني قلت لك . اذهب لتشهد موتها ، كي تدخل حياة أخرى بين أحضانك . اذهب . ودعني .

فذهب (راميرو) ، فاحتضنت (تولا) ابن أختها الذي كان لا ينفك باكيا ، وانتحت به مخدعا أغلقته وراءها ، وأخرجت أحد ثدييها الجافين ، ثدي العزباء الذي كان يترجرج كأن حمى قد أصابته . كان يترجرج بفعل نبضات القلب . كان الثدي الأيمن فوضعت حلمته في فم الطفل الوردي الذي كان لا ينفك يتوجع وهو يشد بشفتيه الصفراوين على تلك الحلمة الجافة .

— هبيني معجزة أيتها العذراء القدسيه — كانت تتوسل وعيناها تذرفان الدموع — معجزة ، وسوف لن يعلم بها أحد قط .

وكانت تضم الطفل الى صدرها كالمجنونة .

وطرق سمعها صوت وقع أقدام ثم محاولة فتح الباب فأخفت ثديها وكفكفت دموعها وذهبت لتفتح الباب . كان القادم (راميرو) الذي قال لها : — لقد انتهى كل شيء .

— ليحلها الله في ملكوته . والآن (يا راميرو) الى الاعتناء بهؤلاء .

— الاعتناء ؟ أنت ... أنت ... لأن بدونك ...

— حسن . والآن الى تربيتهم . أقول لك ...

— ٧ —

الآن ، وقد أصبح (راميرو) أرملا ، الآن يتبين له واضحا ما كان يحمله من الحب (لروزا) زوجته دون أن يكاد يشعر . كانت تعزيته الكبرى هي أن يقبع في المخدع الذي طالما احتواه ، ومارس فيه الحب وبادله وتبادله ليسترجع ذكرى حياته الزوجية .

في البداية ، أيام الخطوبة ، تلك الخطوبة التي لم يطل أمدها ، والتي كانت فترة راحة بطيئة ، كانت (روزا) أثناءها تختلس منه قرارة روحه على الدوام ، وكأنها ليست له ، أو تجعله يعتقد انه لن يعرفها قبل أن تصبح له بصورة تامة . تلك الخطوبة المتحفظة المحاذرة التي ترعاها نظرات (جرترود يس) التي كانت كلها روح . كان (راميرو) يستعيد ويتذكر كيف كان حضور (جرترود يس) الخالة (تولا) ، خالة أبنائه يحد من تصرفاته ، ويزعجه . وكيف

كان لا يجرؤ على أن يطلق أمامها مزحة مما ألف العرائس أن يتبادلوه . وكيف كان يزن كل كلمة من كلماته .

وبعد ذلك جاءت فترة الزواج ، ونشوة الأشهر الأولى وأشهر العسل . *كانت (روزا) تفتح له نفسها ولكن هذه كانت من البساطة* والصفاء بحيث جعلت زوجها يدرك انها لم تخف ولم تحاذر شيئا اذ كانت تحمل قلبها بيدها التي كانت تبسطها كتقدمة ، وتعرض أمام الملأ خلجات نفسها ، منصرفة انصرافا كليا للعناية بالحاضر كما تعيش وردات الحقول وقبرات الفضاء . كذلك كادت نفس (روزا) أن تكون انعكاساً لنفس أختها . أو كالجدول الجاري تحت نور الشمس ، انما تلك ينبوعه المغلق .

وجاء يوم زالت فيه الغشاوة عن عيني (راميرو) وتطهرت نظراته فأصبح يبصر بقلبه بوضوح . لم تكن (روزا) من الجمال على مثل ما رأها هو وتصورها ، وانما كانت صورة عادية ، لكنها تحتوي على كل ما في العادي الساذج من فتنة . كانت كالخبز اليومي ، كالخبز البيتي اليومي ، لا كالحلوى النادرة ذات المحتوى المغلق . فنظرتها التي كانت تنشر السلام ، وابتسامتها ، وحيويتها كانت كلها تجسيدا لنفس متعطشة ، وادعة ، وأليفة . كانت زوجته المسكينة نبتة في حقل الوداعة الهادئ ، مهمتها الصامتة امتصاص النور بعينيها واكتنازه وتوزيعه فيما بعد وقد استحال سلاما . وبقواها اليقظة الحذرة تشبه الشجرة التي تمتص بصورة متتالية صهارة الحياة العادية فتنشر بصورة طبيعية تويجات أزهارها العطرة .

ويا لها من ذكريات . تلك الألعاب التي كانت المسكينة تفر

خلالها منه فيلحق هو بها طائفا في سائر أرجاء البيت ، ويتظاهر بأنه قد ظفر بها ليتقاضاها على ذلك جعلا هو عبارة عن قبلات مستطيلة يطبق فيها الفم على الفم ، وامساكه وجهها بيديه الاثنتين محدقا بروحها عبر عينيها ، ومطيلا التحديق ، وخصوصا عندما كان يضع أذنه على صدرها وقد شبك ذراعيه حول خصرها ، ويقبل يصغي الى مسيرة قلبها الهادئة . فيقول لها : « صه ، دعيه يتكلم » .

وزيارات (جرترودیس) التي كانت وكأنها تقول له عبر عينيها الحزينتين اللتين تطل منهما روحها المغلقة : « أنتما طفلان . وعندما لا أكون أراكما تمارسان لعبة الزوج والزوجة . التهيؤ لانجاب الأولاد ليس هكذا ، فالزواج وضع للزواج ، واسعاد الأزواج ، وانجاب البنين للسماء » .

وكان الأولاد في رأس قائمة تأملاته ، اذ كان قد انقضى شهر وأشهر أيضا ، وعندما لم تظهر دلائل وعلامات على أن انجابا سيتم من ذلك الحب كان يقول مخاطبا نفسه : « هل كانت (جرترودیس) على حق ؟ هل صحيح اننا نلعب لعبة الزوج والزوجة دون أن نرغب في ثمرة مباركة الحب الصادق مع كل ما نملك من شدة الايمان بالواجب؟» ولكن ما كان يزعجه آنئذ ، ولا يزال يتذكره الآن هو ما كان الآخرون يفكرون به عنه حين لم ينجب ولدا وهو أنه أقل رجولة من سواه . لماذا لم يأت ما يأتيه أي صبي هزيل الجسم رعديد أو ما هو أفضل ؟ وكان هذا يجرح كبرياءه . كان يتمنى أن تلد زوجته ولدا بعد انقضاء تسعة أشهر تامة على زواجهما . وكان يقول في نفسه : وانجاب الأولاد وعدمه يتعلق بمدى شدة الحب لدى الأزواج ، أو عدمه . ولكن هنالك طائفة من المحبين من لم ينجبوا . كما ان هنالك من ا لمخادين طمعا في

الثروة ، أو للمغامرة من أثقلت كواهلهم الأبناء . لكنه كان لايزال يذكر جيدا انه كان قد كون لنفسه نظرية وهي ان بعض الحب مجرد مظاهر ، وينبع من الرأس ، وانه قد يظهر بمظهر رائع ، ومع ذلك فقد يكون عقيما . وهنالك آخر جوهري وخفي حتى عن ادراك الذين يغذونه . حب من الروح والجسد ، حب مثمر دائما . ألم يكن حبه (لروزا) عظيما ، أو لم يكن حبها له على مثل ذلك ؟ والآن يتذكر كيف حاول حل اللغز بينما كان يغمرها بالقبلات ، في أحضان عتمة الليل وهدوئه ، وعلى انفراد اذ كان يهمس لها في أذنها متوسلا : « هل تحبيني (يا روزا) هل تحبيني ؟ في حين كانت تند عنها كلمة « أجل » بطيئة ناعمة . كان ذلك جنونا ، جنونا بليدا يستحي منه كلما رأى (جرترو ديس) تدخل ناشرة حولها وقارا هادئا . وقد شفاه من هذا الجنون نضوج الحب عندما تلقى البشرى بقدوم الوليد . كان تحولا مجنونا ... لقد انتصر . وعندئذ جاء الحب الحقيقي مع أولى ثمراته

الحب نعم . حب ؟ يقولون حب ؟ ماذا يعرف عنه كل الكتاب الحبيبين الذين ليسوا محبين . الذين يتحدثون عنه ويحاولون ايقاظه عند القراء ؟ ماذا يعرف عنه أبطال الكلمة ؟ حب ؟ حب ؟ لا . والأفضل حنو . لقد أصبح (راميرو) الآن يقول مخاطبا نفسه : عن الحب تعرف الكتب . في المسارح والروايات وحدها تسمع عبارة « أنا أحبك». وفي حياة اللحم والدم والعظم العبارة القلبية الأكثر لصوقا بالقلب هي تلك التي لا تقال . حب ؟ كلا . حتى ولا حنو على الأقل ، وانما هو شيء لا اسم له ، ولا هو يقال لاشتكاله مع الحياة ذاتها . أكثر المتغنين بالحب يعرفون عنه ما يعرفه المصلون النائحون ، عن الصلاة ومبتلعو التساعيات (صلاة تساعيه) ، وقاضمو الصلوات . ليست

الصلاة هي التي تتم في ساعات معينة ، وفي مكان منعزل ووضع مركب . وانما هي أن تؤتى بخشوع من الروح وبالاقبال على الله . ليكن الأكل ، والشرب ، والتنزه ، واللعب ، والقراءة ، والكتابة ، والتحدث ، وحتى النوم ، وجميع الصلوات ، وحياتنا ، كل هذا ليكن صلاة صامتة ومستمرة : « لتكن مشيئتك » ، « وليأت الينا ملكوتك » دائمة لا ينطق بها اللسان على الأقل ولا تساور الفكر وانما نحياها . هكذا سمع (راميرو) قديسا ومدرسا دينيا يصلي ، فطبق صلاته على الحب . وبما انه كان يجاهر بذلك أمام زوجته ، ويطبقه عليها ، فقد تبين الآن كم كانت تأخذ به في حياتها ، وتطبقه على سيرتها اليومية ، وتصرفاتها البيتية ، والذي كان لها بمثابة الهواء الذي تستنشقه والذي لا نشعر به الا في اوقات الاختناق حين نفتقده . والآن وقد بات (راميرو) على وشك الاختناق فقد تبين عبر ما ألم به من الغم لترمله مدى سلطان الحب القديم الذي عاشه .

في بداية عهده بالزواج كانت الشهوة هي المسيطرة . لم يكن يستطيع أن يلامس اللحم دون أن يستعر لحمه ويرتعش وتتسارع نبضات قلبه ، ذلك لأن الأخرى لم تكن قد أصبحت له بصورة تامة . ولكن فيما بعد كان يضع يده على جسمها العاري بنفس الهدوء كما لو كان يضعها على جسمه هو . ولكن لو علم أن عضوا منها سيبتر فإن ذلك سيسبب له من الألم ما يسببه له بتر عضو منه ، ترى ألم يشعر وتتألم أحشاؤه عند ولادات (روزا) ؟

وحين رأها وقد استفزها السرور بعد ولادة ولدها عندئذ أدرك ان الحب أقوى من الحياة والموت ، وانه يطغي على تناقضهما . كيف

يجعل الحياة تموت . والموت يحيا . كيف يحيا هو الآن موت زوجته (روزا) . وكيف يموت في حياته . ثم بعد ذلك حين رأى الطفل راقدا في سريره هانئا . وشفتاه الورديتان شبه مفتوحتين أبصر الحب وقد استحال لحماً حياً. وازاء السرير ، وهو يتأمل ثمرته ضم الأم الى صدره حين كان الطفل يبتسم في الحلم محركا شفتيه ، وطفق يقبل شفتي (روزا) الورديتين الغضتين ، وينبوع السلام في عينيها ، ويقول لها وقد أبرز اصبعين من أصابعه : « مرة أخرى . اثنين ، اثنين ... » فتجيبه ضاحكة « كلا . كلا . يكفي ، يكفي واحد » . فيقول هو (اثنين ، اثنين . لقد استبدت بي نزوة تطالب أن يكون لنا توأمان . ذكر وأنثى) . وعندما حملت (روزا) للمرة الثانية كان عند كل خطوة تخطوها ، أو عثرة تعثرها يقول « ما أثقل هذا ، وأية خصوبة . أظن ان قولي سيحقق . على الأقل اثنين » . فكانت تجيبه وهي تضحك : « واحد . ويكون الأخير وكفى » . وجاءت الثانية وكانت أنثى (توليتا) ، وبعد ان خرجت سالمة وحية ، واستراحت الأم قبل فمها قبلة طويلة حارة كمكافأة لها وقال : « لقد أجدت العمل يا مسكينة » بينما كانت (روزا) ، وقد انتصرت على الموت والحياة ، تبتسم بعينيها الوادعتين الأليفتين .

وماتت ، وان خيل ان هذا كذب . ماتت . حانت الأمسية المؤلمة من الصراع الأخير . كانت (جرترودیس) حاضرة هناك . وكانت كلما سمحت لها مهمة العناية بالطفلة التي كانت تتصور جوعا تقدم العلاج غير المجدي ، وتسوي السرير ، وتشجع المريضة ، وتقوي معنويات الجميع . كانت المريضة مستلقية على الفراش الذي

انبثقت عنه ثلاثة أرواح ، وقد تعذر عليها الكلام . وخارت قواها ، وأمسك رجلها ، والد أبنائها بيدها فكانت تنظر اليه كفريق في خضم مترامي الأطراف يرسل نظراته الى البعيد ، الى نتوء في جبل حيث مسقط رأسه توارى وراء الأفق . وفي أويقات البهر والاختناق ، كانت عيناها ترنو من وراء الأبدية الى عيني (راميرو) . وهذه النظرات كانت كأنها تسألا يائساً ، تسأل من يتهيأ لسفر لن يعود منه الى الأرض عن سر الحياة الخفي . تلك النظرات الناطقة بالغم والجزع الهادئ كانت وكأنها تقول : « أنت . أنت كنت حياتي . أنت شاركتني مهمة استقدام أبناء قفاء جدد الى الدنيا . أنت أخرجت مني حيوات ثلاثة . أنت رجلي ، قل لي ما هو هذا ؟ » كانت أمسية قاتمة . في أويقات الهدوء كانت تبتسم ابتسامات حزينة وهي تمسك بيديها الحارتين الرطبتين يدي (راميرو) المرتعشتين وتصوب الى عينيه نظرات عينيها المتورمتين المتعبتين من الحياة ، ثم تحولهما الى الطفل الراقد في سريره بالقرب منها ، وتقول بنظراتها ، وأحيانا بصوت ضعيف : « لا توقظه . لا توقظه . فلينم المسكين لينم ... لينم حتى يستكفي . فلينم » . وأزفت ساعتها الحاسمة . ساعة الانتقال ، فكانت وكأنها عند حوافي الظلمات الأبدية معلقة فوق الهاوية ، تتمسك فيه ، برجلها الذي كان يتردد وكأنه يشعر بأنه ينجرف . كانت تحاول أن تفتح حلقها بأظافرها ، مسددة اليه نظراتها المذعورة طالبة منه بنظرات عينيها هواء ، ثم تحولها الى أعماق نفسه . وأفلتت يده ، وسقطت فوق السرير حيث حملت وأنجبت ثلاث بنين . واستراح الاثنان . كان (راميرو) ذاهلا متصلب الفؤاد ، وكأنه في حلم غير ذي نهاية ، ولا منه يقظة ، ميت

الروح بينما كان الطفل راقدا . وجاءت (جرترو ديس) وهي تحتضن الطفلة فأغمضت عيني أختها ، وأصلحت وضعها ، ثم ذهبت لتغطي الطفل النائم وبقبلة نقلت اليه الحرارة التي استمدها من الحياة التي مازالت ظلالها طافية فوق جبين الأم المنهكة .

ولكن هل ماتت (روزا) ؟ هل صحيح أنها ماتت ؟ هل تستطيع أن تموت وهي حية باقية فيه ، في (راميرو) ؟ كلا . في لياليه حيث يرقد وحيدا في ذلك السرير ، سرير الموت والحياة والحب كان يحس تصعد أنفاسها ، وحرارتها الفاترة وان كان أحساسا مؤلماً بالفراغ . وكان يمد يده فيطوقها في الجزء الثاني من السرير وأحياناً يشد بها . وأسوأ ما في الأمر هو أنه عندما يصحو كان ينصرف للتفكير بها فلا يخطر له سوى أشياء من الكتب . أشياء عن الحب ، حب الكتب ، وليس عن الحنو في الحياة ، فيؤلمه ان ذلك الشعور القوي ، حياة حياته ، وأنفاس روحه لم يكن يتهيأ له الا بجهد جهيد ، فيحيله الألم نفسانيا يعني مهذبا ، لكن ذلك سرعان ما يتبخر مع الهواء عندما تدخل (جرترو ديس) .

بقي له من كل هذا ذلك الصوت الناعم الذي يناديه (بابا) . اذن كانت هي هناك ، الميتة الخالدة . ثم نفس الصوت ينادي (ماما) . وصوت (جرترو ديس) الوقور يجيب « ولدي » .

كلا . لم تمت زوجته (روزا) . ليس ممكنا أن تكون قد ماتت ، كانت المرأة حية هناك كالماضي ناشرة حيوات من حولها . الزوجة لا تستطيع أن تموت .

— ٨ —

قالت (جرترو ديس) لصهرها ، وكانت قد جاءت لتقيم في

بيت أختها منذ ولادتها الأخيرة ، وظلت هناك طوال مرض أختها الأخير :

– اسمع : سأهجر بيتي .

فتسارعت دقات قلب (راميرو) .

وأضافت : – أجل علي أن أقيم معكم للعناية بالصغار . لا يمكن ترك تلك المرضعة الناعمة وحدها .

– جزاك الله خيراً (يا تولا) .

– لا تقل (تولا) . لقد سبق ان قلت لك ذلك . بالنسبة لك أنا (جرترود يس) .

– وما الفرق ؟

– أنا أعلم .

– اسمعي يا (جرترود يس) ...

– حسن . أنا ذاهبة لأرى ما الذي تفعله المرضعة .

وكانت تراقبها بلا كلل . لم تكن تسمح لها بأن تضع حلمة ثديها في فم الطفل أمام والده . وكانت تؤنبها على قلة الحيطة والاستهتار عندما تفتح ثوبها لتخرج ثديها .

– ما من حاجة لابرازه بهذه الصورة . المهم هو أن يكون لدى الطفل ما يكفيه من الحليب .

وكان (راميرو) يتألم ، (وجرترود يس) كانت تعلم انه يتألم .

– مسكينة (روزا) . – كان يقول دائما .

– الأطفال المساكين هم الذين يجب التفكير بهم الآن .

– كلا ، لا يكفي . لا أشعر بالراحة الا قليلا ، وخصوصا في الليل . أشعر بثقل الوحدة . كثيرا ما أقضي الليل ساهرا .

– اخرج من البيت بعد العشاء كما كنت تفعل عندما كنت متزوجاً . ولا تعد قبل أن تشعر بالنعاس . على المرء أن لا يتوسد فراشه الا عندما يحس بالحاجة الى النوم .

– ولكني أشعر بفراغ .

– تشعر بفراغ ولديك صبية ؟

– ولكن هي لا تعوض ...

– هذا ما أعتقده ... وان كنتم أنتم الرجال ...

– لم أصدق انني كنت أحبها بهذا القدر ...

– هكذا يحدث دائما . هذا ما حدث لي بالنسبة لخالي ، وهذا أيضا ما حدث لي بالنسبة لأختي ، بالنسبة (لروزا) . لم أعرف مدى حبي لها الى أن ماتت . الآن أعلم ذلك عن طريق عنايتي بأولادها ، أولادكما. وهكذا فنحن نحب الموتى بحبنا للأحياء .

– أوليس اننا نحب الأحياء بحبنا للموتى ؟

– دع التعمق في التفكير .

وفي الصباح كانت ابنة حميه تفتح باب الشرفة بعد ان يكون (راميرو) قد غادر فراشه لتخرج « رائحة الرجال » كما كانت تقول – وكانت تتحاشى الانفراد بصهرها ولذا كانت دائما تصطحب معها أحد الأولاد ، الذين كانت تراقبهم وهم يلعبون وهي جالسة على المقعد الذي كانت تجلس عليه الفقيدة .

وذات يوم سمعت (راميرين) يقول لأخته الصغيرة بصوت ضعيف : — أنا صغير ، وأنت أكثر من صغيرة .

— (يا راميرين ، يا راميرين) — قالت له خالته — ما هذا ؟ هل بدأت تصبح فجا ، أن تكون رجلا ؟

وذات يوم نادى (راميرو) ابنة حميه وقال لها : — لقد سرقت سرك (يا جرترود يس) .

— وأي سر ؟

— علاقتك مع (ريكاردو) قريبي .

— هذا صحيح . وقد حاول ولاحقني . ولم يكن يدعني بسلام . وقد شعرت بالأسى عليه في النهاية .

— وكنت تخفين ذلك بهذا القدر ...

— ولماذا اعلانه ؟

— وأنا أعرف ما هو أكثر .

— وما الذي تعرفه ؟

— انك صرفتيه .

— هذا صحيح أيضا .

— وقد أطلعني على رسالتك .

— كيف ؟ ما كنت أعتقد انه سيفعل . لقد أحسنت في مفارقتي له . هو رجل على كل حال .

وفعلا كان (راميرو) قد اطلع على رسالة ابنة حميه الى (ريكاردو) وفي ما يلي نصها :

« حبيبي ريكاردو . أنت لا تعرف تماماً مدى سوء الأيام التي أعيشها منذ وفاة أختي المسكينة (روزا) . والأخيرة منها أشد ايلاما . لا أفتا أتوسل الى العذراء القدسية وولدها ان يمنحاني القوة على تبين مستقبلي . وأنت لا تعرف تماما كم يؤلمني ويغمني أن أصرح لك ان علاقتنا لايمكن أن تستمر ، لأني لا أستطيع أن أتزوج . فأختي لا تنفك تتوسل الي من العالم الآخر أن لا أهجر أولادها ، وأن أكون لهم بمثابة الأم . ووجود هؤلاء الأولاد يحول دون زواجي . سامحني (يا ريكاردو) ، سامحني أستحلفك بالله . وتبين جيداً لماذا أفعل ذلك . انه ليغمني كثيرا ، لأني أعلم اني قد أحببتك ، ولانني أعلم مدى حبك لي ، ومدى ماستلاقي من الغم . ولكنك وأنت الرجل الطيب ستقدر واجباتي والأسباب التي حملتني على اتخاذ هذا القرار ، وستصادف امرأة غيري ليس لها مثل واجباتي المقدسة توفر لك من السعادة أكثر مما كان بوسعي أن أوفر لك . وداعاً (يا ريكاردو) ، ولتهنأ ، وكن سعيدا ، ووفر سعادة للآخرين ، وكن على ثقة انني لن أنساك أبدا ، أبدا . (جرتروديس) .

وأضاف (راميرو) : – والآن يرغب (ريكاردو) في أن يراك على الرغم من كل ذلك .

– وهل اعتدت أن أتخفى يا ترى ؟

– كلا . ولكن ...

– قل له أن يأتي متى شاء الى بيتنا هذا .

– بيتنا (يا جرترو ديس) ، بيتنا ...

– اجل ، بيتنا ، بيت أولادنا .

– أنت لو أردت ...

– لا تحدثني بهذا . – قالت ذلك وقد هبت واقفة .

وجاء (ريكاردو) في اليوم التالي .

– أستحلفك بالله (يا تولا) .

– لا تعد الى ما مضى (يا ريكاردو) فقد قضي الأمر .

– أستحلفك بالله . – قال ذلك وقد اختنق صوته .

– كن رجلا (يا ريكاردو) . كن قويا .

– ولكن لهم والد ...

– لا يكفي ، اذ ليس لهم أم ... أعني أن لهم أما .

– بوسعه أن يعود فيتزوج ثانية .

– يعود فيتزوج هو ؟ في هذه الحالة سيصبح الأولاد عندي ... لقد وعدت أمهم وهي على فراش الموت بأن أولادها لن يربوا عند زوجة أب .

– واذا أصبحت أنت تلك (يا تولا) ؟

– كيف أنا ؟

– أجل أنت اذا ما تزوجتي (راميرو)

– لن يكون هذا .

– هكذا أنا أتصور .

– هذا لن يكون . لقد قلت لك ان هذا لن يكون . سوف لن أدع مجالا لأن يقوم ذوي أعني ثمرة أحشائي فيضعفوا ما أحمله من الحب لهؤلاء . وأكثر من ذلك لأولادي . لن يكون هذا . حسبي تربية هؤلاء .

– سوف لن تستطيعي اقناع أحد (يا تولا) بأنك جئت للسكن هنا لهذا الغرض .

– أنا لا أحاول إقناع أحد بشيء . وبالنسبة لك يكفي أن أقوله . وافترقا الى ما لا نهاية .

– وكيف ؟ – قال (راميرو) يسألها فيما بعد .

– هو اننا انتهينا . لا يمكن أن يكون بغير ذلك .

– وأصبحت الآن حرة ...

– كنت حرة . وأنا حرة . وأنوي أن أموت حرة .

– (جرترو ديس ... جرترو ديس) . – قال ذلك متوسلا وقد اضطرب صوته .

– لقد ودعته لأني أدين ، كما قلت لك ، لأولادك لأولاد (روزا) ...

– وأولادك ... ألم تقولي ذلك ؟

– أجل أولادي .

– ولكن لو رغبت ...

– لا تلح . لقد سبق وقلت لك انني لن اتزوجك انت ، وأقل من ذلك غيرك .

– أقل ؟ – قال ذلك وفتح لها صدره .

– أجل أقل .

– ولماذا لم تدخلي سلك الرهبنة ؟

– لا أحب أن يأمرني أحد .

ـ اذا أنت دخلت الدير فستكوني رئيسة الدير الأولى .

ـ أن أكون آمرة فهذا أقل ما أرغب فيه . (يا راميرين) ...

فخفف الصبي لتلبية النداء . فاحتضنته خالته وأسرت له في أذنه : « هيا بنا نلعب لعبة المخبأة يا غالي » .

ـ ولكن (يا تولا) .

ـ لقد قلت لك . ـ واذا قالت هذا اقتربت منه وقالت له همسا باذنه وهي تمسك الصبي بيدها ــ لا تدعوني باسم (تولا) وعلى الأخص أمام الأطفال . لا بأس أن ينادوني هم ، ولكن أنت لا . احترم الصغار .

ـ بماذا فرطت في احترامي لهم ؟

ـ بتركك غرائزك مكشوفة أمامهم بهذا المقدار ...

ـ ولكن ما داموا لا يدركون .

يدرك الصبيان كل شيء أكثر منا . وهم لا ينسون شيئا . اذا كانوا الآن لا يفقهونه فانهم في غد سيفقهونه . كل ما يراه الصبي أو يسمعه سيكون بذرة في نفسه وستنبت فيما بعد وتؤتي ثمارها وكفى .

ـ ٩ ـ

بدأت في ذلك البيت حياة قلق مؤلمة . صراع داخلي . كانت هي تدفع عن نفسها ، أو تحتمي بالصغار الذين كانت تتوخى أن يكونوا حاضرين ، بينما كانت تستحثه هو على الخروج للتريض . ومن جهته هو كان يكثر من اظهار حبه وحنوه على الصبيان . ولم يكن يفعل شيئا سوى التحدث اليهم عن أمهم، المسكينة أمهم . وكان يحتضن الطفلة فيغمرها بالقبلات أمام خالتها .

– ليس بهذا المقدار يا رجل . ليس بهذا المقدار لأنك لا تأتي سوى إزعاج الطفلة . واسمح لي أن أقول لك ان هذا غير طبيعي لا بأس في أن تجعلهم ينادوني يا خالة وليس يا أماه . ليس بهذا القدر . امسك نفسك .

– أليس لي أن أتعزى بأولادي ؟

– أجل يا بني ، أجل . ولكن لتهذيبهم يحتل الصدارة .

– وهذا ؟

– إغراقهم في القبل والحلوى يحيلهم ضعافا . ولاحظ ان الصبيان يتكهنون ....

– وأي ذنب لي ...

– ولكن هل يوجد بيت خير من هذا لصبيان من رجال الله ؟ لديهم مسكن ، مسكن حقيقي ، ووالد ووالدة ، مسكن نظيف وطاهر ، بوسعهم ان يتجولوا في أرجائه متى شاؤوا ، مسكن ليس من حاجة لاغلاق أي باب من أبوابه ، مسكن لا أسرار فيه . فهل تريد أكثر من ذلك ؟

ولكنه كان يرغب في الدنو منها حتى يكاد يلامسها . وذات مرة اضطرت أن تقول له وهما على المائدة .

– لا تنظر الي هكذا ، فالأطفال يرون .

واعتادت أن تجعلهم يصلون ليلا لأجل أمهم (روزا) (ماميتا) ليحلها الله في ملكوته . وذات ليلة أضافت تقول بعد الفراغ من هذه الصلاة وكان والدهم حاضرا :

– الآن يا أبنائي صلوا « أبانا الذي في السموات » و(أفي ماريا) لأجل (بابا) أيضا .

– ولكن (بابا) لم يمت يا خالتي (تولا) .

– لايهم فقد يجوز أن يموت ...

– وكذلك أنت .

– هذا صحيح . (وأبانا الذي في السموات) و(أفي ماريا) لأجلي أنا اذن .

وعندما رقد الأطفال ، التفتت الى صهرها وقالت له :

– لايمكن أن تتواصل الأمور هكذا ، فاذا لم تحد من استرسالك فيكون علي أن أغادر هذا البيت حتى ولو علمت ان (روزا) لن تغفر ذلك لي .

– ولكن هو ...

– ما قلت ... لاأرضى أن تدنس بنظراتك هذا البيت الطاهر حيث يمكن تنشئة أولادك بصورة أفضل . تذكر (روزا) .

– ولكن مما تعتقدين اننا قد صغنا نحن الرجال ؟

– من لحم ، وفظاظة .

– وأنت ألم تنظري ولو مرة واحدة ؟

– ما هذا ؟ – قالت ذلك وحولت وجهها عنه .

– لو كنت لست أمهم ، مع أن الواقع هو هكذا ، فهل من حقك أن تلاحقيني بملاحظاتك ؟ هل من العدل أن تؤنبيني ، وأنت تملئين البيت بشخصك ، بنظرات عينيك الناريتين ، ونبرات صوتك ، وبمغناطيسية جسدك الحافل بالروح ، ولكنها روح ملأى بالجسد ؟

فطأطأت (جرترو ديس) رأسها وقد اغتاظت لكنها صمتت بينما كانت ضربات قلبها تتسارع .

ــ من المسؤول عن هذا ؟ قولي لي .

ــ الحق معك (يا راميرو) . ولكن اذا أنا ذهبت فسيفتقدني الاطفال لأنهم يحبوني ...

ــ أكثر مني . ــ قال الأب بأسى .

ــ ذلك لأني لا أكثر من تقبيلهم ، ولا أثقل عليهم . واذا قبلتهم ، فانهم يعلمون ان قبلاتي أطهر ، وانها لهم وحدهم ...

ــ أعود فأكرر السؤال : ترى من هو المسؤول عن هذا ؟

ــ حسن اذن . انتظر عاما واحدا . لننتظر الى أن ينقضي العام . اترك لي مهلة عام واحد كي أرى نفسي بوضوح ، وترى أنت ذاتك بوضوح ، ولكي تقتنع ...

ــ عام ... عام ...

ــ أتراها مدة طويلة ؟

ــ ثم ماذا بعد أن تنتهي ؟

ــ عندئذ سنرى ...

ــ سنرى ... سنرى ...

ــ أنا لا أعد بأكثر من ذلك .

ــ واذا في هذا العام ...

ــ ماذا ؟ واذا في هذا العام أقدمت على القيام بحماقة ...

ــ ماذا تقصدين بكلمة حماقه ؟

– اذا أحببت أخرى وتزوجتها .

– هذا . أبدا .

– ما أسرع ما قلت ذلك ...

– هذا ... أبدا .

– هيه ... وعود رجال ...

– واذا وقع ذلك فعلى من يقع اللوم ؟

– لوم ؟

– أجل لوم .

– هذا يعني لا غير ...

– ماذا ؟ .

– انك لم تحبها . انك لم تحب (روزا) كما أحبتك هي . كما تمنت أن تكون هي الأرملة ...

– كلا ، هذا يعني شيئا آخر . ان يكون ...

– حسن . يكفي . (يا راميرين) . تعال الى هنا . اذهب واركض (يا راميرين) وهكذا فتر الحوار .

وظلت هي تواصل مهمتها في العناية بأبناء أختها .

لم توافق هي على أن تنصرف ابنة أختها الى ممارسة مهنة الخياطة وأشياء من هذا « أعمال الجنس » ؟ – كانت تقول – كلا ، لاشيء من أشغال الجنس . فمهمة المرأة هي صنع الرجال والنساء وليس الباسهم » .

وذات يوم تفوه (راميرين) بعبارة نابية تعلمها من الشارع فهم

والده بزجره فقاطعته (جرترودیس) هامسة له بقولها : « كلا . دعه . ينبغي أن تتجاهل ما سمعته – هنا ينبغي وجود جو لا كلام فيه حتى للتأنيب » .

وذات مرة سمعت أن فتاة ظلت عزباء ، وانها ظلت كذلك لالباس القديسين ، فقالت : « أو لالباس أرواح الأطفال » .

– (توليتا هي عروسي) – قال (راميرين) ذات مرة .

– لا تتفوه بالحماقات . (فتوليتا) هي أختك .

– ألا يجوز أن تكون عروسا وأخت ؟

– كلا .

– وماذا يعني كونها أخت ؟

– كونها أخت ؟ أن تكون أخت ...

– أن تعيش في نفس البيت . قالت الطفلة .

وذات يوم جاءت الطفلة تعرض اصبعا قد لسعته نحلة . فكان اول شيء خطر على بال خالتها أن تفعله هو اذا كان بالامكان اخراج السم عن طريق امتصاصه بشفتيها كما كانت قد قرأت بالنسبة لاخراج سم بعض الأفاعي . فصاح الأطفال وانضم اليهم والدهم انهم لن يدعوا نحلة في الحديقة . وانهم سيلاحقون النحل حتى افنائه .

– كلا . هذا لن يكون – صاحت (جرترودیس) – لن يمس النحلات أحد .

– لماذا ؟ أمن أجل العسل ؟ – قال (راميرو) يسأل .

– لقد قلت لا يمسها أحد .

– ولكنها ليست أمهات (يا جرترودیس) .

– أعلم . أعلم ذلك جيدا . لقد قرأت في أحد الكتب التي لديك ما هي النحلة . لقد قرأته . أنا أعلم ما هي النحلات التي تلسع وتصنع العسل . وأعلم ما هي الملكة ، وأعلم ما هي اليعاسيب .

– اليعاسيب نحن الرجال .

– هذا واضح .

– اسمعي اذن . أريد أن انخرط في السياسة فهم يرغبون في ترشيحي لمنصب نائب في الولاية .

– صحيح ؟ – قالت (جرترو ديس) ولم تتمكن من إخفاء سرورها .

– أيسرك ذلك بهذا المقدار ؟

– كل ما يلهيك .

– لايزال أمامنا أحد عشر شهرا (يا جرترو ديس) .

– لماذا ؟ للانتخاب ؟

– أجل للانتخاب .

– ١٠ –

والواقع هو انه كانت تتأجج في نفس (جرترو ديس) عاصفة هوجاء . كان رأسها في عراك مع قلبها ، وكلاهما الرأس والقلب في عراك معها ، مع ما هو أشد عنادا ، وأعمق ، وألصق ، مع ما يشبه مح عظام النفس . وحين تكون وحدها ، عندما يغيب (راميرو) عن البيت كانت تدعو ابن هذا (وروزا) (راميرين) الذي كانت تدعوه ولدي ، فتضمه الى صدرها الأعزب المضطرب من الغم والحافل بالقلق . وأحيانا أخرى كانت تظل تتأمل صورة التي كانت

وما زالت أختها ، وكأنها تسألها اذا كانت ترضى حقا أن تخلفها هي (جرترو ديس) في حياة (راميرو) . « أجل ، قالت لي انني سأصبح أما لرجلها . زوجته الأخرى – كانت تقول لنفسها – ولكنها لم تقو على التسليم بذلك . كلا ، لم تقو على التسليم به ... ولو انني كنت في موقفها ما كنت وافقت عليه ... من أخرى ؟ كلا . من أخرى كلا ، حتى ولو بعد موتي ، ولا من أختي ... من أخرى لا . لايمكن الا أن يكون لواحدة ... كلا . لم تستطع أن ترضى بهذا . لم تستطع أن ترضى أن يدخل بينه ، بين رجلها ، بين والد أولادها وبيني ظلها ... لم تستطع أن تقبل به . لأنه عندما يكون هو بجانبي وملاحقا لي ، بدن الى بدن ، من يقول لي أنه عندئذ لم يكن يفكر بها ؟ وهكذا لن أكون إلا وسيلة للذكرى ... بل ما هو أسوأ ، ذكرى الأخرى . كلا . ما طلبته مني هو أن لا أترك أولادها يربون في كنف زوجة أب . وسأحول دون ذلك . واذا تزوجت (راميرو) وأسلمت له جسدي وليس روحي فحسب فسوف لن أستطيع أن أتفادى ذلك ... لأني عندئذ أصبح زوجة أب . وفضلاً عن ذلك اذا أنجبني أولاداً من لحمي ودمي ... » وقضية الأولاد اللحميين كانت تهز مح عظام روح (جرترو ديس) وتملأه برعب قدسي ، لأنها كانت كلها أمومة ، أمومة روحية .

وكانت تخلو لنفسها في مخدعها لتبكي عند قدمي الأم العذراء المقدسة وتغمغم بهاتين الكلمتين : « ثمرة أحشائك ... »

وذات يوم سألها (راميرين) وكانت تشده إلى صدرها . قال :

– لماذا تبكين يا أماه ؟ – وكانت عامته أن يدعوها هكذا .

– ولكني لا أبكي ...
– أجل ، أنت تبكين ...
– وهل رأيتني أبكي ؟
– كلا . ولكني أحس بأنك تبكين ... فأنت تبكين ...
– ذلك لأني تذكرت أمك .
– ولكن ألم تقولي اذاك أنت أمي ؟
– أجل . ولكن الأخرى . الأم (روزا) .
– آه ، أجل . تلك التي ماتت ... تلك التي (لبابا) ...
– أجل ، تلك ، التي (لبابا) .
– ولماذا يطلب الينا « بابا » أن لا ندعوك « ماما » وانما الخالة (تولا) . وأنت تطلبين أن ندعوك « ماما » لا خالة . لا خالة «تولا» ؟..
– ولكن ، هل يقول (بابا) لكم هذا ؟
– أجل . لقد قال لنا انك حتى الآن لم تصبحي (ماما) وانما الخالة (تولا) . وانك لست حتى الآن أكثر من خالتنا .
– حتى الآن ؟
– أجل لقد قال لنا انك حتى الآن لست « ماما » ، وانك ستصبحين كذلك ... أجل ستصبحين أمنا بعد مضي بضعة أشهر ...
– اذن سأصبح زوجة أب لكم . قالت (جرتروديس) تخاطب نفسها لكنها لم تجرؤ على أن تبوح بتلك الفكرة الخاطئه أمام الصبي .
– حسن . لا تعر مثل هذه الأمور كبير أهمية يا بني ...
وعندما جاء (راميرو) انتحت به ناحية وقالت له بقسوة :

– لا تكثر من التحدث مع الصبي بمثل هذه الأشياء . لا تقل له انني لست حتى الآن أكثر من خاله ، الخالة (تولا) . وانني سوف أكون أمه . هذا يفسد أخلاق الصبي . هذا يفتح له عينيه على مالا ينبغي له أن يراه . واذا كنت تفعل ذلك للتأثير عليّ . اذا كنت تأتي ذلك لتحركني ...

– لقد قلت لي انك عينت موعدا ...

– حسن . اذا كنت تفعل ذلك بهذا القصد ، ففكر فيما سيخلقه من رد الفعل على ولدك . انه موقف ...

– حسن . حسبك .

– لا تخيفني الكلمات . ولكني سأسكت . وانت تذكر (روزا) ، تذكر (روزا) حبك ... الأول .

– (تولا) .

– حسبك ولا تبحث عن زوجة اب لأولادك لأن لهم أماً .

– ١١ –

« الحاجة ماسة للريف » .. قالت (جرترودیس) ذلك وأشارت الى (راميرو) ان من المناسب أن يذهب الجميع للاصطياف في قرية صغيرة تطل من هضبة على البحر وتحيط بها شواطئه . وبحثت عن مكان ليس مطروقا كثيرا حيث يكون بوسع (راميرو) أن يلتقي برفاق يلعب معهم لأنها لم تكن ترى انه مجبر على ملازمة أولاده . وهذا نوع من الوحدة كانت (جرترودیس) تخشاه .

هنالك كانوا يخرجون يومياً الى النزهة في المرتفعات المطلة على البحر

حيث توجد أشجار القطلب ترافق (جرترو ديس) (وراميرو) الأولاد الثلاثه (رامبرين ، روزا ، والفيرا) . لم تغامر قط (جرترو ديس) في الخروج وحدها مع (راميرو) حتى في ذلك المكان حيث لا يعرفهما أحد . وعندما كانوا يبلغون مكاناً حيث يوجد نتوء من الأرض يصلح لأن يكون مقعدا مناسبا ، كان الاثنان (جرترو ديس وراميرو) يجلسان عليه متجهين الى البحر ، بينما يكون الأولاد يلعبون على مقربة منهما . وذات مرة عرض (راميرو) أن يجلسا على الأرض الجبلية المعشوشبة فقالت له (جرترو ديس) : – على الأرض لا . أنا لا أجلس على الأرض فوق التراب ، وعلى الأخص بالقرب منك وأمام الأطفال ...

– ولكن مادام التراب نظيفاً ... وتوجد أعشاب ...

– قلت لك انني لن أجلس هكذا . فليس الوضع مريحا ... وهو أسوأ من كونه غير مريح ...

كانا وهما جالسان على ذلك المقعد يتأملان البحر ، يتحدثان عن أشياء كثيرة ، وحين يرغب الرجل في تحويل الحديث الى مواضيع محظورة كانا قد اتفاقا مبرما على خطرها ، فسرعان ما كان يثب اسم (رامبرين ، أو روزيتا ، أو الفيرا) على لسان الخالة . كانت هي تتحدث عن البحر ، وكانت كلماتها التي كانت تصله ملفعة بصدى تململ أمواج البحر غير البعيدة ، كمقاطع غامضة من غناء حول سرير الروح . كانت (جرترو ديس) تجزيء أهواء (راميرو) قصد اضعافها . لم تكن توجه نظراتها اليه وانما الى البحر . ولكنها كانت ترى فيه ، في البحر نظرة الرجل بما يشبه الأعجوبة . كان البحر الطاهر يجمع بين نظراتهما وروحيهما .

وأحيانا أخرى كانوا يذهبون الى غابة من أشجار الكستناء . وهنالك كان عليها أن تشدد الرقابة عليه ، عليه وعلى الصغار . كذلك وجدت هنالك شجرة قد سقطت على الأرض فاتخذت من جذعها مقعدا لها .

كانت تعمل على تعويده على حياة العائلة الريفية الشريفه ، حيث يرقد مشبعا من النور والهواءالطلق.حيث ينام وهو يسمع صوت الجدجد ، لا تلم به أحلام ، ويوقظه صياح الديك ، وضوضاء حركة الفلاحين والبحارة .

وعند الصباح يهبطون الى شاطئ صغير حيث يجتمع المصطافون . فيعدل الأولاد بأقدامهم وهم حفاة مجرى ماء صغير يصب في البحر بعد أن يمر في الرمل . وكان (راميرو) ينضم أحيانا الى لعبة الصغار هذه .

ولكن (جرترودیس) بدأت تخشى . لقد أخطأت في حساباتها ، اذ قد أصبح (راميرو) يتهرب من اللعب مع رفاق المصيف أكثر من ذي قبل ، ويتحين الفرص للانفراد بابنة حميه . كان البيت الذي يقيمون فيه أكثر من مضرب للغجر . والريف بدلا من أن يرقد ، ليس فحسب نزوة (راميرو) وانما شهوته بل زادها اشتعالا ، وأخذت هي تشعر بالقلق . لقد بدأت الحياة في تلك الأرياف ، والغابات ، وفي منعطفات الجبال تتكشف أمامها عارية . هذا بالاضافة الى انه كان هنالك حيوانات أليفة يربيها الانسان وكثيراً ما يعاشها . وأصبحت (جرترودیس) تتألم عندما ترى أبناء أختها يزداد ميلهم نحو الألعاب الصبيانية . الريف لا يوفر الطهارة . كلا ، لا يوفرها . الطهارة هنالك

حيث تغوص الأنظار في لجة البحر . وحتى البحر ... نسائم البحر كانت وكأنها تخزهم .

هتفت (جرترودیس) ذات أمسية عند غروب الشمس وكانوا يجلسون مقابلين للبحر : – أنظر ، ما أروع هذا الجمال .

كان آنئذ القمر بدرا ، وقد غطت وجهه الشاحب حمرة خفيفة انعكست عن أمواج البحر فبدا كزهرة عملاقة منعزلة في صحراء مضطربة .

– لماذا تغنى الشعراء كثيرا بالقمر ؛؟ – قال (راميرو) يسأل – ولماذا أصبح النور الرومانسي وللمحبين ؟

– لا أدري . ولكن يبدو لي انه أرض ، الأرض الوحيدة ... ونعلم اننا لن نتمكن من الوصول اليها ... هذا ما لايطاق . تجبهنا الشمس . يطيب لنا أن نستحم بنورها . ولكننا نعلم انها غير صالحة للسكن . وانها تحرقنا . بينما نعتقد ان من الممكن العيش على سطح القمر بسلام وشفق دائم ، بلا عواصف لأننا لا نراه يتغير . ولكن يؤلمنا ان الوصول اليه غير ممكن ... ولا يمكن مسه ...

– نحن نرى على الدوام نفس الوجه ... هذا الوجه المكتئب الوقور.. يعني دائماً « لا » . انه أحيانا يستره بصورة تدريجية . ويظلمه أحيانا أخرى ، وقد يغدو كالمنجل ...

– أجل . – وعندما قالت (جرترودیس) ذلك يبدو انها كانت تصغي لتفكيرها ، دون أن تعي تفكير رفيقها وان كان الواقع خلاف ذلك . انه يرينا نفس الوجه لأنه ثابت ووفي ... ولا تعلم شيئا عن الجهة الأخرى ... وكيف هي ...

– هذا يضاف الى لغزه .

– قد يكون ... قد يكون ... اتصور ان هنالك من يتشهى الوصول الى القمر ... المستحيل ... لنرى كيف هو الوجه الثاني ، لنعلم ونفسر وجهه الآخر ...

المظلم ...

– المظلم ؟ يبدو لي وأنه ليس كذلك . حين نرى هذا منيرا يكون الوجه الثاني مظلما . أو أنني لا أعرف شيئا عن هذه الأشياء ، أو أنه عندما يصبح هذا مظلما أي في بداية الربع الأول ، فان الوجه الثاني يكون بدرا كاملا ...

– لمن ؟

– كيف لمن ؟

– أجل . عندما يكون الوجه منيراً ... فمن ينير ؟

– السماء . وكفى . أم ان الله قد أبدع القمر لانارتنا ليلا نحن أبناء الأرض ليس الا ؟ أو لكي نتداول هذه السخافات ؟

– حسن اذن ، انظري (يا تولا) ...

(روزيتا) .

ولم تترك له مجالا لانهاء تعليله لصعوبة مس القمر ومدى اتساعه .

وعندما حدثته عن وجوب العودة الى المدينة وافق على ذلك بمنتهى السرعة . تلك الفترة التي قضوها في الريف بين الجبال والبحر كانت غير مثمرة بالنسبة لأهدافه . « لقد أخطأت » – كان يقول مخاطباً نفسه – انها هنا أكثر ضمانا من هناك ، من البيت . هنا تستتر بالجبل ، بالغابة ، وكأن البحر بمثابة الترس لها . هي هنا كالقمر لا يمكن مسها ،

في حين ان الهواء المشبع بالملوحة المتسربة عبر الشمس يلهب الدم ... وهنا تبدو لي انها خارج مدارها ، وانها تخشى شيئا ما . تحيا حياتها حذرة ، وقد يقال انها لا تنام.... » ومن جهتها هي كانت تقول : « كلا ، الطهارة ليست في الأرياف . الطهارة زنزانة دير ومدينة . الطهارة تنمو حيث يتجمع الناس في أماكن متلاصقة زيادة في الانفراد . المدينة هي دير ، ومدرسة للراهبات . هنا الأرض حيث يرقد الجميع تقريبا توحدهم مع الحيوانات التي هي أفاعي جحيم أخرى ... فالى المدينة ، الى المدينة ..

كان ديرها في المدينة ، مسكنها ، وفيه زنزانتها . هناك تستطيع ارقاد صهرها بصورة أفضل . آه . ان بالوسع القول عنه ما قالته القديسة (تريزا) عن صهرها (خوان دي أو فال) زوج (دوينا خوانادي أو مادا) — وكانت (جرترو ديس) تدمن قراءة ما كتبته القديسة تلك التي تقول : « انه ميال للأمور الصبيانية ... » كيف يمكن جعله صبيانيا ؟

— ١٢ —

وأخيراً ضاقت (جرترو ديس) بوحدتها فأحبت أن تحمل غمها الى معرفها الأب (الفاريس) وانما ليس مرشدها الروحي . لقد أبت هذه المرأة أن تكون مقادة ، وعلى الأخص أن يكون قائدها رجل . لقد نظمت حياتها واعتقاداتها الدينية مما كانت تسمعه حولها ، وما تقرأه ، ولكنها كانت تفسره على طريقتها هي . وكان خالها المسكين (دون بريمتييغو) الكاهن الساذج الذي كفل تربية الاختين ولقنهما تعاليم الدين المسيحي على طريقة (مازو) يكن تقديراً أكبر لذكاء ابنة اخته

(تولا) ويعجب بها . وكان يقول لها : « اذا سلكت سلك الرهبنة فستصبحين القديسة (تريزا) الثانيه ... ما أروع ما يخطر لك يا بنية ... » وأحيانا أخرى كان يقول لها : « يبدو لي أن فيما تقولية يا بنية بعض نفحات الهرطقة . هوم . لا أدري لا أدري ... اذ ليس ممكنا أن يوحي اليك ملاكك الحارس بالهرطقة ، ولكن هذا يبدو لي ك... لا أدري ... وكانت تجيبه وهي تضحك « أجل يا خالي ، ان ما يخطر لي شبيه بالسخافات وما دامت تقول ان رائحة الهرطقة تفوح منها فسوف لن أعود للتفكير فيها » . ولكن من يستطيع تقييد الفكر ؟

كانت (جرترووديس) تشعر دائما انها وحدها . وحدها يعني انها بحاجة لمن يساعدها ، ولكنها لمساعدة الغير لم تكن وحدها . كانت كاليتيمة المثقلة بالأولاد . وكانت كالعكاز لسائر المحيطين بها . ولكن اذا ضعف ساقاها . واذا عجز رأسها عن تثبيتها على طريقها ، واذا بدأ قلبها يضطرب ويضعف فمن سيسندها هي ؟ من سيكون لها بمثابة العكاز ؟ لأنها ، وهي المفعمة بالاحساس والشعور ، والأهواء الفضلى ، والأمومة لم تكن تشعر بالبنوة . فكانت تطرح على نفسها هذا السؤال : « ترى أليست هذه كبرياء ؟ » .

وأخيرا لم تطق تحمل هذه الوحدة ، فقررت أن تبث غمها لمعرفها الأب (الفاريس) . وقصت عليه ما عرضه عليها (راميرو) ، وحتى ما قاله للأولاد أن لاينادوها الآن « بأمي » ، والدوافع التي تحملها على المحافظة على طهارة ذلك البيت ، وانها لا ترغب في أن تسلم نفسها لأي رجل ، وانما هي ترغب في الاحتفاظ بنفسها لما هو أفضل ، وأن تكرس نفسها لأولاد (روزا) .

– ولكني أرى ما رأه صهرك أمرا طبيعيا – قال الأب الروحي الطيب .

– لست أتحدث عن صهري وانما عن نفسي أيها الأب الطيب . وأعتقد انني ما فزعت لسيادتك بحثا عن زواج ...

– كلا . كلا يا بنيّتي . كلا .

– ذلك لأنهم يقولون ان غرفة الاعتراف توفر الزواج . وان الآباء يتخصصون بأمور الزواج ...

– الشيء الوحيد الذي أقوله الآن يا ابنتي ، ان من الأمور الجد طبيعية أن يعود صهرك للتفكير بالزواج وهو الأرمل والفتّي والقوي . وأكثر من طبيعي بل قدسي أن يبحث عن أم لأولاده ...

– أم أخرى ؟ انها موجودة .

– أجل . ولكن اذا ذهبت هذه ...

أذهب ؟ أنا ؟ أنا مجبرة بهؤلاء كأمهم لو كانت حية .

– وهذا يفتح مجالا للقيل والقال .

– يا أبت . لقد قلت انني لا أقيم وزنا لما يقولون ...

– واذا كنت قد فعلت ذلك متعمدة كي يتحدث الناس ؟ أمتحني نفسك فقد يكون وراء ذلك رغبة في مواجهة اهتمام الآخرين ، وتحدي الرأي العام ...

– واذا كان ذلك كذلك . فماذا ؟

– اذا كان ذلك فهو خطيئة . وعلاوة على ذلك فالقضية غير هذا .

– وما هي القضية ؟

ـ القضية اذا كنت تحبينه ام لا . هذه هي القضية . هل تحبينه أم لا ؟

ـ كزوج كلا .

ـ ولكن هل ترفضينه ؟

ـ أرفضه ... كلا .

ـ ولو أنه حين تقدم من أختك المتوفاة تقدم منك ...

ـ يا أبت ، يا أبت .. قالت ذلك بصوت عال .

ـ أجل . هناك ينبغي أن ينظر ...

ـ يا أبت ، هذا ليس خطيئة ...

ـ ولكن المطلوب الآن قيادة روحية ، والتماس نصائح ...

أجل ، هذه خطيئة ... قد يكون خطيئة ... وقد يكون ثمة غيرة قديمة ...

ـ يا أبت .

ـ يجب التعمق في القضية . فقد لا تكوني قد سامحتيه .

ـ لقد قلت لك يا أبت انني أحبه ولكن ليس كزوج أحبه كأخ . وكأكثر من أخ . كأب لأولادي ، لأن هؤلاء ، أولاده هم لي ، من أعماقي ، من كل قلبي . ولكن كزوج لا . أنا لا أستطيع أن أشغل المكان الذي شغلته أختي في سريره ... وفضلاً عن ذلك فأنا لا أريد ، ولا أستطيع أن أجعل لأولادي زوجة أب ...

ـ زوجة أب ؟

ـ أجل زوجة أب . اذا انا تزوجته ، تزوجت أب أولاد قلبي

أكون قد أوجدت لهؤلاء زوجة أب . وفضلاً عن ذلك اذا أنا رزقت منه أولادا من دمي ولحمي . هذا ... أصبح الآن غير ممكن ...

ـ أصبح الآن ...

ـ أجل . لأن لدي أولاد قلبي ... أولادي ...

ـ ولكن فكري فيه ، في صهرك ، وحالته ...

ـ أن أفكر ؟ ...

ـ أجل . ألا تأخذك رأفة به ؟

ـ أجل . أنا أرأف به ، ولهذا فأنا أعينه واساعده . هو بمثابة أخ آخر لي .

ـ تساعدينه ... وتعينينه ...

ـ أجل أساعده وأعينه ليصبح أبا ...

ـ ليصبح أبا ... ليصبح أبا ... ولكنه رجل . ...

ـ وأنا امرأة .

ـ ضعيفة ...

ـ أأنا قوية ؟

ـ أكثر من اللازم

ـ أكثر من اللازم ؟ والمرأة القوية ؟

ـ يا ابنتي هذه القوة قد تصبح أحيانا صلابة وعنفا . وانت قاسية عليه ، جد قاسية . لا تحبينه كزوج ؟ وما أهمية ذلك . في الزواج لا حاجة لمثل ذلك . كثيرا ما يكون على المرأة أن تتزوج رجلا رأفة به ، أو لانقاذه من الوحدة ، أو لخلاصه ، لخلاص روحه ...

– ولكني لا أدعه وحده ...

– أجل أنت تدعينه وحده . واظنك تدركين ما أعني دون أن أوضح ذلك ...

– أجل ، أجل أدركه ، ولكني لا أريد أن أفهمه . ليس وحده . أنا التي هي وحدها . وحدها ... وحدها ... ودائما وحدها ...

– ولكنك تعرفين القول القائل : « الزواج خير من العناق ... » .

– ولكني لا أعانق نفسي .

– ألا تتذمرين من الوحدة ؟

– ليست وحدة معانقة . ليست الوحدة التي تعنيها يا أبت . كلا . ليست هي . أنا لا أعانق ذاتي ...

– واذا كان هو يعانق ؟

– فليبتر د بحب صغاره والعناية بهم .

– حسن . وما دمت قد أصبحت تفهمين مني .

– بزياده .

– واذا كان لا ، فسأطرح لك بوضوح ان صهرك يوشك أن يتعرض للخطر . واذا وقع هذا فأنت الملومة .

– أنا الملومة ؟

– الأمر واضح .

– أنا لا أراه على شيء من الوضوح ، لأني لست رجلاً . . .

– لقد قلت لي أن مخاوفك من زواجك مع صهرك سببه الخوف من انجاب أولاد منه . أليس كذلك ؟

– أجل . هو هكذا . اذا رزقنا بنينا فسأكون أنا زوجة أب بالنسبة للذين تركتهم لي أختي شئت ذلك أم أبيت .

– ولكن الزواج لم يوضع لانجاب الأولاد فحسب .

– لأجل الزواج وإسعاد الأزواج لينجبوا أولاداً للسماء .

– اسعاد الأزواج ... أتفهمين ذلك ؟

– تقريبا ...

– كي يتلذذوا في الحياة بلا خطيئة .

– بت الآن أقل فهما .

– حسن . وما هو العلاج الشافي من الحسية ؟

– كيف ؟ وما هو هذا ؟ ماذا ؟

– ولكن لماذا انفعلت هكذا ؟ ... لماذا انفعلت ؟

– ما هو العلاج الشافي من الحسية ؟ الزواج أو المرأة ؟

– الاثنان ... المرأة ... والرجل ...

– ولكن يا أبت لا . لا . لا . لا . أنا لا أرضى أن أكون علاجا لشيء . ما هذا . أأحب علاجلاً . وعلاجاً شافيا لهذا . لا . أنا أعلي نفسي عن ذلك .

– ولكن مادام ان ...

– لا . لم يعد من فائدة . لو أنه لم يرزق أولادا من أختي فلربما كنت أتزوجه لأرزق أولادا ... لأرزق أولادا منه ... ولكن علاجا ؟ ولمثل هذا ؟ أنا علاج ؟ كلا .

– ولو انه طلبك قبل أن يطلب أختك ...

— طلبني أنا ؟ من قبل ؟ عندما عرفنا ؟ يا أبت دع الحديث عن مثل هذا فمن العسير أن نتفاهم . وأرى اننا نتكلم لغات مختلفة فأنا لا أفهم لغتك ، ولا أنت تفهم لغتي .

وهنا هبت واقفة من جانب كرسي الاعتراف . وقد تعذر عليها المشي اذ كانت ركبتاها قد أصبحتا تؤلمانها لطول الركوع ، كما كانت مفاصل روحها قد أصبحت تؤلمها ، وازداد شعورها بالوحدة ، وكانت تخاطب نفسها بقولها : « كلا ، انه لم يفهمني . انه لم يفهم ما أعنيه . أولا وأخيراً هو رجل . ولكن هل أفهم أنا من نفسي ؟ ترى هل أفهم ؟ هل أحبه أم لا ؟ أوليس هذا تعالياً ؟ أليست تلك نزوة الأرمني الذي لم يلق بنفسه في المستنقع لانقاذ رفيقه مخافة أن يتسخ ؟ ... لست أدري ... لست أدري ... »

— ١٣ —

وفجأة لاحظت (جرترودیس) ان صهرها قد طرأ عليه تبدل وأصبح وكأنه رجل آخر ، وأنه يخفي بعض الأسرار ، ويتحفظ ، ويتأنى ويكثر من الخروج من البيت . ولكن هذا التغيب المستمر عن البيت لم يخدعها . فالسر يكمن في البيت . وبفضل صبرها وحذقها فاجأت نظرات تعارف حميمي تبادلها (راميرو) مع الخادمة .

(مانولا) ابنة التاسعة عشرة من عمرها ، وخريجة دار العجزة ، التي تبدو عليها سيماء المرض لاصفرار لونها ، وذات العينين اللامعتين المستكينتين ، والوادعتين ، القليلة الكلام ، التي تبدو دائماً حزينة . كانت تنادي (جرترودیس) يا سيدة ، وكانت تضطرب أمامها . وقد طلب اليها (راميرو) أن تناديها « يا آنسة » .

ــ كلا ناديني هكذا يا سيدة ، وليس يا آنسه ...

وبصورة اجمالية فقد كانت الخادمة تخشاها وتتجنب مجلسها خجلا أو رهبة . وكانت تتجنب الصغار وقليلا ما توجه كلمة اليهم . وهؤلاء من جهتهم كانوا يظهرون (لمانولا) لا مبالاة شبيهة بالاحتقار وحتى انهم في بعض الأحيان كانوا يهزأون منها بالكلام مما جعلها تحذر . وكانت (جرترودیس) تخاطب نفسها قائلة : « الغريب انها بالرغم من كل هذا لا تريد أن تذهب .. هذه الصبية تشبه الهرة » وحتى انها تكهنت بما يمكن أن تخبيئه .

وذات يوم فاجأت الفتاة المسكينة عند خروجها من مخدع (راميرو) الذي تسمية السيد ، وقد احتقن وجهها ، وتصاعدت أنفاسها . فتبادلتا النظرات الا ان الخادمة حولت نظرها . وجاء حادث آخر ، اذ جاء الصبي (راميرين) يقول لخالته :

ــ قولي لي يا أماه (تولا) هل (مانولا) هي أختنا أيضا ؟

ــ لقد سبق وقلت لكم ان جميع الرجال والنساء اخواننا .

ــ أجل . ولكن مثلنا نحن الذين نعيش معا ...

ــ كلا . ومع انها تعيش معنا ، فهذا ليس بيتها ...

ــ واين هو بيتها ؟

ــ بيتها ؟ لا تحاول التعرف عليه . ولماذا سألتني هذا السؤال ؟

ــ ذلك لأني رأيت (بابا) يقبلها ...

وفي تلك الليلة بعد ان أرقدوا الصبيان قالت (جرترودیس لراميرو) :

– يجب أن نتكلم .

– ولكن مازال أمامنا ثمانية أشهر ...

– ثمانية أشهر ؟

– ألم تقولي منذ أربعة أشهر ان المهلة عام كامل ؟

– لست أبغي التحدث بمثل هذا يا رجل وانما بما هو أهم .

فتوقفت دقات قلب (راميرو) وشحب لونه .

– أكثر أهمية ؟

– أجل أكثر أهمية . عن أولادك وتربيتهم . وعن خريجة الملجأ هذه المسكينة ، التي أثق من انك تتعدى الحدود معها .

– واذا كان ذلك كذلك فمن الملوم ؟

– وتسأل أيضا ؟ العلك تريد أن تحملني تبعة ذلك ؟

– الأمر واضح كل الوضوح ان نعم .

– حسن اذن (يا راميرو) . لقد انتهت مهلة العام . ولم يعد ثمة مهلة . لا يمكن أن يكون . لا يمكن أن يكون . الآن أنا ذاهبة ، وليقل القانون ما يشاء . – سآخذ الأولاد معي ، يعني انهم سيذهبون معي .

– ولكن هل أصابك مس من الجنون (يا جرترو ديس) ؟

– المجنون هو أنت .

– ولكن ماذا تريدين ؟ ...

– لا شيء . فاما أنا أو هي . اما أن أذهب ، أو تطرد هذه الخادمة من البيت .

وأعقب ذلك فترة صمت مغمه .

ـ لا أستطيع أن أطردها (يا جرترودیس) . لا أستطيع أن أطردها . اذ الى أين ستذهب . ألى الملجأ مرة ثانية ؟

ـ تخدم في بيت آخر .

ـ لا أستطيع أن أطردها (يا جرترودیس) لا أستطيع أن أطردها . ـ قال ذلك وانفجر الرجل باكيا .

ـ مسكين يا رجل ـ غمغمت قائلة وقد وضعت يدها فوق يده ـ لقد أحزنتني .

ـ الآن . هيه . الآن ؟

ـ انك لتثير اشفاقي ... لقد أصبحت مستعدة لتحمل كل شيء...

ـ (جرترودیس . تولا) .

ـ ولكنك قلت انك لا تستطيع طردها ...

ـ هذا صحيح . أنا لا أستطيع طردها . ـ قال هذا وبدا عليه الانهاك .

ـ ماذا اذن ألا تذهب وحدها ؟

ـ كلا ، لن تذهب وحدها .

ـ والاشهر الثمانية الباقية من المهلة ؟

ـ (يا تولا) أنا ضائع . أنا ضائع .

ـ كلا . هي أكثر ضياعا . اليتيمة ربيبة الملجأ التي ليس لها ما يحميها .

ـ هذا صحيح . هذا صحيح .

ـ لا تبتئس (يا راميرو) ، فللقضية علاج سهل ...

ـ علاج ؟ وسهل ؟ ـ قال هذا وتجرأ على أن سدد نظراته الى وجهها .

– أجل . تزوجها .

ولو أن صاعقة انقضت عليه وجرحته لما كان تأثيرها عليه أكثر من تلك الكلمات البسيطة .

– أن أتزوج . أن أتزوج الخادمة . أن أتزوج ربيبة الملجأ ؟ وتقولي لي أنت ذلك ؟ ...

– من سواي سيقوله لك . الأم الحقيقية لأولادك أنا اليوم .

– وتهبينهم زوجة أب ؟

– كلا ، هذا لا . ذلك لأنني سأظل أمهم . وأنت تهب والدا لذاك الذي سيكون ولدك الجديد ، وأن تهبه أما أيضا . ربيبة الملجأ هذه لها الحق في أن تكون أما . وعليها واجب أيضا . لها الحق بولدها وبوالد ولدها .

– ولكن (يا جرترو ديس) ...

– تزوجها ، قلت لك . أجل وتقول ذلك لك (روزا) – وعندئذ رن صوتها كالجرس – زوجتك (روزا) تقول لك بلساني تزوج ربيبة الملجأ (مانولا) .

– يا سيدة . – سمع صوت ينادي يشبه الأنين . وكانت الفتاة المسكينة تسمع كل ذلك وهي مكبة على الموقد دون أن تغادر مكانها . وأعادت النداء « يا سيدة » مرة ثانية ، الا أنها لم تغادر مكانها .

– تعالي الى هنا ، أو أحضر أنا لتأتي .

– اكراما الله – قال (راميرو) متوسلا .

وجاءت الفتاة وهي تستر وجهها الباكي بيديها .

– أكشفي عن وجهك . وانظري الينا .

– كلا يا سيدة ، كلا .

– أجل . انظري الينا . هنا سيدك ، هنا (راميرو) الذي يطلب سماحك لما فعله معك .

– سماحي يا سيدة . ولك ...

– كلا . هو يطلب سماحك وسيتزوجك .

– ولكن يا سيدة . – هتفت المسكينة في حين صاح (راميرو) : « ولكن يا جرترو ديس » .

– لقد قلت سيتزوجك . هكذا تريد (روزا) . ليس ممكنا أن تظلي هكذا لأنك أصبحت ... كلا ؟ هذا هو ؟

– أجل ، أعتقد ذلك يا سيدة ولكني ...

– لا تبكي هكذا . ولا تقسمي ايمانا . أنا أعلم انك لست الملومة ...

– ولكن من الممكن تسوية ...

– تعلم (مانولا) جيداً انني لم أفكر قط في التخلي عنها . وكنت سأجد لها مكانا ... – قال (راميرو) .

– أجل يا سيدة أجل . انه ليسرني ...

– كلا . لا ينبغي أن تسري بما ستقولينه . أو أن الأفضل هنا آن يكون (راميرو) هو الذي لا يستطيع أن يُسر بهذا . أنت ربيت في الملجأ ، أليس الأمر كذلك ؟

– أجل يا سيدة .

– ولكن ولدك سوف لن يربى فيه . ان له الحق في أن يكون له أب . أب . وسيكون له . والآن اذهبي ... اذهبي الى مخدعك ، ، ودعينا .

وعندما أصبح (راميرو) وهي وحدهما قالت له :

– أظن انه لم يبق لديك مجال للشك ...

– ولكن ما تحاولينه مجرد جنون (يا جرترو ديس) .

– الجنون ، وأكثر من الجنون هو العار الذي تنويه .

– على الأقل استشيري بذلك الأب (الفاريس) .

– لن أستشيره . لقد استشرت (روزا) بالأمر .

– ولكن ما دامت انها قالت لك لا توجدوا زوجة أب لأ ولادي ...

– لأولادها ؟ لأولادك .

– أجل . أولادنا ...

– وسوف لن أوجد لهم زوجة أب . سأظل الأم لهم ، لأولادنا ، ولكن لأولاد هذه ...

– لن يمنعها مانع من أن تكون أما ...

– أجل أنت . اذا لم تتزوجها . هذا لا يعني ان تصبح أما ...

– ولكن هي ...

– ماذا ؟ ألأنها لم تعرف زوجتك تظن انها سوف لن تكون كما ينبغي ؟

– ولكن تأملي كيف هي هذه الطفلة ...

– الذي كان ينبغي أن يتأمل هو أنت ...

– هذا جنون ... جنون ...

– ما قد كان هو الجنون . والآن فكر في الأمر . اذا كنت لا تقوم بما يجب عليك ، فأنا سأثير الفضيحة . وسيعرفها الجميع .

– (جرترو ديس) .

– تزوجها . وينتهي الأمر .

بات يخيم على ذلك البيت حزن عميق بعد زواج (راميرو) من ربيبة الملجأ . وهذه أصبحت تبدو أكثر من الخادمة والمربية . كما أصبحت (جرترو ديس) أكثر من ربة البيت . وكانت هذه تعمل جاهدة كي تقصي الأولاد عن المتزوجين الجدد . وكان هؤلاء يتجنبون قدر المستطاع الدنو من ذلك المخدع الخاص . كان لابد من اتخاذ خادمة أخرى ، وتفسير ذلك يعود للصغار .

ولكن كيف يفسرون لهم جلوس الخادمة القديمة الى المائدة مع أهل البيت لتناول الطعام ؟ وهذا ما أرادته (جرترو ديس) .

— اكراما لله يا سيدة . — كانت تقول (مانولا) متوسلة — لاتسببي لي ما يورث الخجل ... تأملي انني أشعر بالخجل ... تحمليني على أن أجلس الى المائدة مع الأسياد ، وخصوصا مع الأولاد ... وأن أخاطب السيد بصيغة المفرد — أنت — لن يكون هذا .

— خاطبيه كما تشائين . ولكن من الضروري أن يعلم الأولاد الذين تخافينهم كثيرا انك من العائلة . وحين يتم ترتيب ذلك فسوف لن يفاجئني مؤخر عيونهم المظاهر الحميمية . والآن ينبغي أن تزدادي حذرا لأن الرغبة القديمة في التستر عنهم قد نمت عليك .

— كان حمل (مانولا) مزعجا جدا . ولم يقو تركيب جسمها الضعيف على تحمله بسهولة . وكانت (جرترو ديس) لا تنفك تطلب اليها أن تخفي عن الأولاد وضعها غير الطبيعي .

كان (راميرو) يعيش مستسلما لليأس . وبصورة أكثر لرغبات (جرترو ديس) . وكان يقول مخاطبا نفسه :

– بت الآن أدرك انه لم يكن ثمة علاج آخر . ولكن ....

– أيثقل ذلك عليك . – قالت (جرترووديس) تسأله ...

– لأنني تزوجت كلا . ولكن لزواجي مرة ثانية فنعم .

– ليس هذا وقت التفكير في مثل هذا . ولنواجه الحياة .

– آه ، لو رغبت أنت (يا تولا) .

– لقد أجلتك عاما فهل أحسنت استعماله ؟

– ولو حافظت عليه كما كنت ترغبين . فهل تخبريني ما عساه سيتم في نهايته ؟ فأنت لم تعدي بشيء .

– ولو كنت قد وعدتك بشيء فان ما كان سيكون . كلا فلربما كان ما هو أسوأ . في مثل ظروفنا لو وعدتك بشيء ، أو لو طلبت اليك مهلة لعقد قراننا اذن لكان أسوأ .

– ولكن او انني حافظت على المهلة كما كنت ترغبين . فما عساك كنت فاعلة ؟

– لا أدري .

– لا تدرين (يا تولا) ... لا تدرين (يا تولا) ...

– كلا . لا أدري . أقول لك انني لا أدري .

ولكن شعورك ...

– فكر بزوجتك . . فلست ادري اذا كانت ستجتاز المرحلة الحرجة التي وضعتها فيها . المسكينة جد ضعيفه ، والخوف مستول عليها ... انها مازالت خائفة من كونها زوجتك وربة بيتك .

وعندما آن أوان الوضع الخطر أظهرت (جرترووديس) ما كانت

قد أظهرته من التفاني عند ولادة أختها ، وتناولت الطفل الهزيل الضعيف. كانت هي التي ألبسته الثياب ، وهي التي عرضته على والده .

— ها هو هنا يا رجل . ها هو هنا .

— يا له من مسكين . — هتف (راميرو) يقول ، وقد أحس وكأن أحشاءه تذوب اشفاقا على تلك الكتلة اللحمية الحية .

— هو ولدك . ولد آخر ... ولد آخر قدم الينا .

— قدم الينا ؟ قدم اليك أيضا ؟

— أجل الي أيضا . سوف لن أكون له بمثابة زوجة أب ، أنا التي تحاول أن لاتكون للآخرين ذلك .

وهذا ما حدث اذ لم تفرق بينهم .

— انك لقديسة (يا جرترو ديس) — كان يقول لها (راميرو) — قديسة صنعت خطاة .

— لا تقل ذلك . أنا خاطئة ، وأجتهد كي أخرج قديسين من أولادك ، ومنك ، ومن زوجتك .

— زوجتي ؟

— زوجتك ، نعم . أم ولدك . لماذا تظهر نحوها هذا الاستخفاف المطعم بالتحبب وكأنها عبء عليك ؟

— وماذا تريدينني أن أفعل . أتريدينني أن أغرم بها ؟

— ألم تكن مغرما بها عندما أغويتها ؟

— بمن ؟ بها هي ؟

— أنا أعلم . أنا أعلم ان لا . ولكن المسكينة تستحق ذلك .

— ولكنها الأقل بين النساء . اذا لم تكن لا شيء .

– كلا . يا رجل كلا . هي متفوقة . انها أكثر مما تظن انت . لم تعرفها بعد .

– أجل ، هي عبدة .

– قد تكون كذلك . ولكن من الواجب تحريرها ... يستولي الخوف على المسكينة ... لقد ولدت خائفة ... واستغليت أنت خوفها...

– لا أدري كيف كان ذلك . لا أدري ...

– هكذا أنتم الرجال . لا تدرون ما تفعلون حتى ولا تفكرون فيه . تأتون الأعمال دون تفكير ...

– أحيانا كثيرة يكون التفكير فيها أسوأ من فعلها .

– ولماذا تقول ذلك ؟

– لا لشيء . لا لشيء ...

– أنت بلا ريب تعتقد انني لا أفعل شيئا سوى التفكير .

– كلا . أنا لم أقل انني أعتقد ذلك ...

– أجل . انت تعتقد انني لست سوى تفكير ...

— ١٥ —

عادت (مانولا) المسكينة العبدة ، ربيبة الملجأ فحملت من جديد . وقد ساء هذا (راميرو) .

– كأن ما لدينا غير كاف . – كان يقول .

– وأنا ما عساي أفعل . – كانت المظلومة تقول .

– قبل كل شيء أنت أردت أن يكون ذلك – قالت (جرتروديس). وعلى حده كانت تعود لتأنيبه لمعاملة زوجته باستخفاف مشوب بالاشفاق ، وكانت المسكينة تتحمل وضعها أكثر من الأخرى .

– أخاف على حياة هذه المرأة المسكينة . – ...قال (دون خوان) الطبيب الأرمل الذي كان يعودها من وقت لآخر .

– هل تعتقد انها في خطر ؟ – سألته (جرترو ديس) .

– هذه الفتاة أحشاؤها ضعيفة ، وقد استهلكت حيويتها ، ويمكن أن يكون بوسعها التحمل الى أن تضع جنينها . هذا أقصى حد . والطبيعة حكيمة .

– الطبيعة . كلا . العذراء الأم المقدسة (يا دون خوان) قالت (جرترو ديس) تقاطعه .

– كما تريدين . أنا أرضخ دائما لرأيك الصائب . ولكن كما قلت الطبيعة أو العذراء وكلا القولين هما واحد في نظري ...

– كلا . العذراء هي العناية ...

– حسن اذن الطبيعة أو العذراء أو العناية أو ما كان تعمل على أن تتحمل الأم الى أن تضع مولودها الجديد . هذا الطفل البريء سيكون لأمه المسكينة المقبلة بمثابة تعويذة ضد الموت .

– وبعدئذ ؟

– بعدئذ ؟ ربما كان عليك أن تربي وحدك بالاستعانة بمربية ، مولودا جديدا . لديك أربعة ، وستتحملين أثقال الخامس ...

– سأتحمل عبء كل ما يبعثه الله لي .

– ولربما ، ولا أقول تأكيدا ، سوف لن يتأخر كثيرا ، اذ يصبح (دون راميرو) حراً – قال هذا وسدد نظرات عينيه الزرقاوين الى وجه (جرترو ديس) . فأضافت هذه قائلة متظاهرة انها لم تفهم .– وسيكون على استعداد للزواج مرة ثالثة .

– سيكون ذلك نوع من البطولة ...

– يبدو ان نفحات البطولة تنقصك أنت الرجل الأرمل وبدون أولاد .

– آه . (يادونيا جرترو ديس) . لو كان بوسعي أن أتكلم .

– اذن أسكت .

– أنا ساكت .

وتناول يدها واحتفظ بها لبعض الوقت ، ثم ربت لها بالأخرى على يدها وأضاف وقد أطلق زفرة حرى . – كل رجل هو عالم كامل (يا جرترو ديس) .

– وكل امرأة هي قمر . أليس ذلك كذلك (يا دون خوان) ؟

– كل امرأة بوسعها أن تكون سماء .

فقالت (جرترو ديس) في نفسها : – هذا الرجل يغازلني غزلا افلاطونيا .

في حين كان سائر من في البيت يخاف على حياة المسكينة (مانولا) ، وكانت العناية موجهة اليها ، في هذا الوقت سقط (راميرو) طريح الفراش اذ قد أصيب بالتهاب رئوي . فأصيبت ربيبة الملجأ المسكينة بما يشبه البله .

– دعيه لي (يا مانولا) – قالت لها (جرترو ديس) – اعتني بنفسك وبحملك ، ولا تحملي هم العناية بزوجك ، فقد يضرك ذلك .

– ولكن يجب علي ...

– يجب عليك أن تعتني بمن هو لك .

وزوجي ، أليس هو لي ؟

– كلا . الآن لا . الذي هو لك الآن ، والدك الآتي قريبا .

– واشتدت وطأة المرض على (راميرو) .

– بت أخشى من مضاعفات على القلب . – قال (دون خوان – فقلبه ضعيف . وهذا مفهوم . فالهموم والمنغصات .

– وهل سيموت (يا دون خوان) ؟ – قالت (جرترو ديس) تسأل وقد استبد بها الحزن .

– كل شيء ممكن ...

– انقذه (يا دون خوان) . انقذه . كيفما كان ...

– وما الذي أتمناه أكثر من ذلك ؟ ...

– آه . يا للتعاسه ، يا للتعاسة . – وللمرة الأولى شوهدت تلك المرأة تجلس وقد أصيبت بدوار .

قال الطبيب بعد أن استردت (جرترو ديس) وعيها . في الواقع ان ترك أربعة أطفال لأمر مريع . ماذا قلت ؟ أربعة ؟ قد يجوز أن يكونوا خمسة . وأيضا هذه الأرملة وهي على مثل هذه الحالة ...

– هذا أمر بسيط (يا دون خوان) لمثل هذا أكفي أنا وأزيد . يا للتعاسة ، يا للتعاسة .

وذهب الطبيب وهو يقول : « هذا واضح . ابنة الحمي هذه كانت تتوقع أن يصبح صهرها حراً لها . كل حي هو عالمٌ تام ، وبعضهم عدة عوالم . ولكن أية امرأة هي . انها امرأة تامة ، وكم هي قوية ، وما أفطنها . ويا لعينيها ، انهما تطلقان نارا .

وذات أمسية نادى (راميرو) ابنة حميه (جرترو ديس) ، وكانت الحمى قد هادنته قليلا ، وتوسل اليها أن تغلق الباب ، وقال لها :

« أنا أموت وما من علاج . أشعر وكأن قلبي يريد أن يتوقف عن الخفقان . وعلى الرغم من كل هذه الحقن فأنا سأموت ...

ـ لا تفكر في مثل هذا (يا راميرو) ...

واكنها هي كانت ترى أن الموت قريب منه .

ـ أنا أموت وقد حان الوقت لأبوح لك بالحقيقة (يا تولا) . أنت زوجتي (روزا) .

ـ لأنك لم تصمم . وكنت تؤجل ...

ـ وهل تدرين لماذا ؟

ـ أجل . أعلم ذلك (يا راميرو) .

ـ في بداية الأمر ، عندما رأيتكما ، عندما رأيت الأختين أحببت (روزا) التي كنت أراها دائما عن بعيد . ولكن عندما اقتربت وبدأت أختلق اليكم رأيتك أنت ، لأنك أنت الوحيدة التي أراها عن قرب . هي كانت تمحوك عن بعد ، وأنت كنت تمحينها عن قرب .

ـ لا تتحدث بمثل هكذا عن أختي . عن أم أولادك .

ـ كلا . أم أولادي هي . أنت . أنت . أنت .

ـ لا تفكر الآن الا (بروزا) (ياراميرو) .

ـ التي سأجتمع بها قريبا . أليس كذلك ؟

ـ من يدري ... فكر في الحياة ، وفي أولادك ...

ـ ستبقين أنت لأولادي . انت أمهم .

ـ فكر في (مانولا) ، في المسكينة (مانولا) ...

ـ تلك المهلة (يا تولا) تلك المهلة المشؤومة .

فتورمت عينا (جرترو ديس) من البكاء .

– (يا تولا) ... صاح المريض وقد بسط ذراعيه .

– نعم (يا راميرو) نعم . – هتفت هي وقد ألقت بنفسها بين ذراعيه واحتضنته . وتلاقى الفمان ولبثا كذلك وهما يجهشان بالبكاء .

– أتغفرين لي كل شيء (يا تولا) ؟

– كلا . (يا راميرو) كلا . أنت الذي يجب عليك أن تغفر لي .

– أنا ؟

– أنت . ذات مرة قلت ، هناك قديسون يصنعون خطاة.ترى هل كانت لدي فكرة تمس بالفضيلة . ولكن عندما توجهت أنت بانظارك إلى أختي قمت أنا بما ينبغي علي . وأحب أن أعترف لك ان الرجل ، كل رجل ، حتى أنت (يا راميرو) ، حتى أنت كنت دائما أخشاك . لم أكن أرى في الرجل غير الفظاظة . الأولاد ، نعم ، ولكن الرجل ... لقد فررتُ من الرجل ...

– أنت على حق (يا تولا) .

– والآن خذ لنفسك بعض الراحة فهذا الانفعال قد يسبب لك ضرراً . وأجبرته على وضع ذراعيه تحت الغطاء ، وأصلحت ثيابه ، وطبعت قبلة على جبينه كما تقبل الطفل – وهو كان لها بمثابة الطفل – ومضت لشأنها . وعندما أصبحت وحدها قالت : « وإذا شفي من مرضه ؟ واذا لم يمت ؟ والآن وقد كشف السر الذي كان بيننا ؟ (ومانولا) لمسكينة ؟ سيكون علي أن أذهب . وإلى أين ؟ واذا ماتت (مانولا) وأصبح هو حراً ؟ وهنا ذهبت لتكشف على (مانولا) فوجدتها ساجدة .

وفي اليوم التالي صحبت الأولاد الى غرفة والدهم وكان قد تناول

القربانه . ويكاد أن يكون في حالة احتضار ، فرفعتهم اليه الواحد تلو الآخروجعلتهميقبلونه . وجاءت (مانولا) وهي تتكيء على (جرترو ديس) فأوشك أن يقضى عليها لفرط ما أصابها من الغم على المريض . وكان على (جرترو ديس) أن تقودها الى سريرها ، وأن توسدها الفراش . وبعد قليل أسر المريض الى (جرترو ديس) وقد أمسك يدها : « وداعا حبيبتي (تولا) . ثم لفظ النفس الأخير . فأفرغت الخالة شجون قلبها أمام والد أولادها (راميرو) المسكين الذي أصبح جثة هامدة .

— ١٦ —

كان الحادث قليل الأثر على الجميع باستثناء سيدة البيت ، لأن الأولاد لم يكونوا بحيث يدركون ثقل ما حدث ، والأرملة (مانولا) كانت تكرس حياتها ونشاطها كالشجرة للحياة الأخرى التي تحملها في أحشائها ، ومع ذلك كانت لا تنفك تتوجع من حين لآخر كالحيوان الجريح ، وتقول انها على وشك أن تموت . وكانت (جرترو ديس) تتوقع هذا .

وأغمضت هذه عيني المتوفي ، ولكن ليس قبل أن تقول مخاطبة نفسها : « ترى الا يزال ينظر الي ؟ ... » وكفنته كما كفنت خالها ، وألبسته ثوبا إضافة الى ما كان يلبسه عند موته دون أن تجرده منها ، ثم بعد ذلك ، وكانت قد انهكها التعب المتواصل طيلة أعوام ، ضمت لبعض الوقت فمها الى فم (راميرو) البارد ، واسترجعت ذكرى حياتهم التي كانت حياتها . وعندما علا بكاء الصغير ابن ربيبة الملجأ أنفصلت عن الميت وذهبت لتحمل الصغير ، واسكات وتدليل من لايزال ينعم بالحياة .

وأثناء ذلك كانت حالة (مانولا) تزداد تدهورا .

– أنا على وشك الموت يا سيدة . وسوف لن أستطيع التحمل هذه المرة . هذه الولادة ستكلفني الحياة .

وهكذا كان . اذ انها ولدت، طفلة ، وراحت تنزف دماً ، وهكذا جاءت المولودة مغطاة بالدماء . وكان على (جرترروديس) أن تتغلب على ما كان منظر الدماء يحدثه لها من اشمئزاز ، وخصوصا التي مثل هذه ، وقد كلفها جهداً التغلب عليه . في إحدى المرات وقبل وفاة أختها (روزا) تقيأت هذه ، ففرّت (جرترروديس) مذعورة منها . لم يكن ذلك بباعث الخوف وانما كان الباعث الاشمئزاز .

وماتت (مانولا) ، وعيناها اللتان تطوف فيهما صور ضبابية من خيالات الملجأ مصوبتان الى عيني (جرترروديس) .

– لا تحملي هم أولادك – كانت قد قالت لها (جرترروديس) فسوف أظل حية الى أن يشبوا عن الطوق ويصبحوا بحيث يعتمدوا على أنفسهم في الدنيا ، أو فسأدعهم لأخوانهم . سأولي تلك المسكينة الأخيرة عناية خاصة ، هذه التي قد تكلفك الحياة . سأكون لها أما وأبا .

– شكر . شكراً . شكراً . جازاك الله خيرا . انك لقديسة .

وهمت أن تقبل يدها . ولكن (جرترروديس) أكبت عليها وقبلتها على جبينها ، وعرضت لها خدها كي تقبلها . وكانت ربيبة الملجأ تكرر مظاهر الشكر والامتنان كمن يلقي أمثولة كان قد تعلمها منذ الصغر . وماتت كما عاشت كحيوان خاضع وصبور ، أو كبعض أشياء البيت .

وهذه الميتة الطبيعية كان لها وقع عميق في نفس (جرترو ديس) التي كانت قد شهدت ميتات ثلاثة . وبدا لها انها في هذه المرة قد أدركت سر اللغز بصورة أعمق . والجرح الذي بدأ يخز قلبها لم يعمقه موت خالها ولا موت أختها ولا موت (راميرو) ، وانما كانت هذه الميتة كأنها تؤكد الثلاثة الأخريات ، وتنيرهن أيضا .

وفي هذيانها الانفرادي كانت تقول مخاطبة نفسها : « مات أولائك الثلاثة . أما هذه فقد قتلوها . ألم أقتلها أنا أكثر من أي شخص آخر ؟ ألم أعدها لهذا المأزق ؟ ولكن ، هل عاشت المسكينة ؟ وهل كان بوسعها أن تعيش ؟ وهل ولدت يا ترى ؟ أجل ، كانت معرضا . أو لم يكن موتها معرضا ؟ أو لم يكن زواجها كذلك ؟ ألم نلقها نحن في دورة الأبدية لتدخل ملجأ المجد ؟ ألا تصبح هنالك نزيلة الملجأ أيضاً ؟ » ولكن أكثر ما كان يثير الحزن في نفسها ، تلك الفكرة الملحة التي كانت تلازمها وهي كيف سيكون شعور (روزا) عندما تراها بجانبها ، بجانب (راميرو) وتتعرف عليها في العالم الآخر . الكاهن الصالح خالها أدى رسالته في هذا العالم ، قرباهما وحماهما بوجوده . وأختها (روزا) نالت بغيتها ونعمت وتركت وراءها ما كانت تتمناه من الأولاد . (وراميرو ... راميرو ؟) كذلك ، أجل (راميرو) عبر السبيل ، وان يكن بصورة عابرة ، موليا ظهره الى نجمة قطبه التي ترشده ، وتألم ، ولكن ألمه كان نبيلا ، وارتكب خطايا ولكنه كفر عنها . ولكن ، هذه المسكينة التي لم تتألم على الأقل ، ولم تخطىء ، وأنما أخطىء بحقها ، وماتت يتيمة ... « كذلك حواء ماتت يتيمة ... » هكذا كانت (جرترو ديس) تفكر . ثم بعد ذلك

نفول : « كان الله لها بمثابة الأب . والأم ؟ لم يكن لحواء أم ... وهذا تفسير للخطيئة الأولى ... ماتت حواء يتيمة الانسانية » . وذكر حواء أعاد الى ذاكرتها ما ورد في سفر التكوين وكانت قد قرأته منذ عهد قريب وكيف ان الله نفخ الحياة في الانسان عن طريق الأنف ، وتصورت انه ينتزعها منه بنفس الطريقه . كذلك تصورت فيما بعد ، أن الله استرد الحياة الغامضة عليها من ربيبة الملجأ عن طريق قبلة اذ وضع الشفاه الخفية المتعددة التي تؤلف السماء عندما أطبقت فوق شفتيها الزرقاوين بفعل الموت ، واسترد نفحة الحياة .

والآن بقيت (جرترو ديس) وحدها مع الأطفال الخمسة وهي لآن تكافح مع المرضعات من أجل الطفلة الصغيرة .

كان أكبرهم (راميرين) يمثل صورة صحيحة عن والده من حيث هيئته وتصرفاته ، وكانت خالته على أتم استعداد منذ ذلك الوقت ، منذ الصغر لمكافحة تلك الميول التي كانت عند الوالد والتي تبنيت انها كانت شديدة الضرر له : « علي أن أظل يقظة — كانت (جرترو ديس) تقول — لكي عندما يستيقظ الرجل فيه ، أو على الأصح الذكر ، أرشده ليحسن الاختيار بهدوء وراحة » . وأسوأ ما في الأمر هو ان صحته لم تكن تامة الجودة ، وان نموه كان شاقا ومؤلما .

كان عليها أن تعد الجميع لمواجهة الحياة وليمضوا فيها قدما الى الأمام ، وأن تعلمهم تقديس أبائهم الذين فقدوهم .

وأبناء ربيبة الملجأ المساكين « هل هم ابنائي أيضا ؟ — كانت (جرترو ديس) تقول مخاطبة نفسها — انهم ابنائي كالآخرين ، كأبناء أختي ، وأكثر . لأن هؤلاء أبناء خطيئتي . أجل أبناء خطيئتي . كم هي مسكينة تلك الطفلة » . وكانت عليها أشد قلقا .

أصبحت (جرترو ديس) تشعر بانزعاج لتلميحات الطبيب (دون خوان) الذي كان يكثر من التردد لزيارة الصبيان ، وحتى انه رغب في فحصها كمريضة في حين لم يكن يعلم انها تشكو من أي مرض ، فأعلنت له ذات يوم انها ترغب في تغيير الطبيب .

— كيف هذا (يا جرترو ديس) ؟

— الأمر واضح غاية الوضوح ، لأني ارى عليك مؤشرات تجعلني أخشى أن يكون هذيان الشيخوخة المبكرة قد أصابك ، والحالة تحتاج طبيبا صافي الذهن متيقظه .

— حسن جدا . اذن مادام ان المناسبة قد سنحت ، فأرجو أن تسمحي لي أن أتكلم بوضوح .

— قل ماشئت (يا دون خوان) . ولكن مع العلم ان ماسوف تقوله سيكون الأخير في هذا البيت .

— من يدري ...

— قل .

— أنا أرمل وبدون بنين كما تعلمين (يا جرترو ديس) وأعبد الأولاد .

— اذن تزوج مرة ثانية .

— وهذا ما أنا مقدم عليه .

— وتطلب نصيحتي . ؟

— أطلب أكثر من نصيحة

ـ أن أبحث لك عن خطيبه ؟

ـ أنا طبيب . وليس فحسب انني لم أرزق ولدا من زوجتي التي كانت أرملة ، بل فقدنا الولد الذي حملته معها عند زواجنا .

ـ ولا أزال أبكيه ـ وأنا أعلم ، أعلم جيداً ، وبصورة أكيدة انني سوف لن أنجب ولدا اذ ليس ذلك في مقدوري . وأنا أشعر انني أقل رجولة من سواي ، وان كان ليس بسبب ذلك . أنت تفهميني (يا جرترو ديس) .

ـ كنت أتمنى أن لا أفهمك (يا دون خوان) .

ـ واتماما للحديث أظن ان هؤلاء الأطفال أبناء أختك والاثنين الآخرين قد يمكن ...

ـ انهما أبنا أختي مثل أولئك . الأصح أبنائي .

ـ حسن اذن . أبناؤك هؤلاء كما تعتبرينهم هم بحاجة لأب لايكون فقيرا ، وانما ميسور الحال .

ـ وهذا كل شيُ ؟

ـ أجل . وحتى أعتقد انهم بحاجة لأب .

ـ حسبهم (يا دون خوان) أبونا الذي في السموات .

ـ وأم أنت تمثلين الأم المقدسة . أليس ذلك كذلك ؟

ـ أنت قلت ذلك (يا دون خوان) وللمرة الأخيرة في هذا البيت .

ـ بمعنى ان ؟

ـ اسطورة ميلك للأولاد ، وعدم قدرتك على انجابهم ... قد فهمتها جيدا (يا دون خوان) .

ـ جيدا . وهذا على ما أظن سيكون سرا بيننا نحن الاثنين .

– سوف لن أكون أنا التي ستقف في سبيل زواجك . وأقول هذه الأسطورة ، أسطورة كونك تبحث عن أولاد تتبناهم لا تقنعني ، لأن هذا سيكون من السهل عليك اذا ما تزوجت . لكنك تفتش عني ، ستفتش عني حتى ولو كنت وحدي ، وكنا سنعيش بدون أولاد . هل فهمت عليك (يا دون خوان) ؟ هل فهمت علي ؟

– هذا صحيح (يا جرترو ديس) حتى ولو كنت وحدك فأنا أتزوجك اذا أنت رضيت . واضح . لأنني أنا واضح جدا ، واضح جدا . أنت التي تستجلبني . وفي هذه الحالة سيكون علينا أن نتبنى أولاداً بأي طريقة كانت ولو اخرجناهم من الملاجئ ، لأني رأيت أنك مثلي تحبين الأولاد ، وأنك بحاجة لوجودهم ، وتبحثين عنهم وتعبدينهم .

– ولكن لا أنت ولا سواك (يا دون خوان) لم يعرف قط انني كنت غير أهل لانجابهم ، ما من أحد يستطيع أن يقول انني عاقر . لاتعد مرة ثانية الى هذا البيت .

– لماذا (يا جرترو ديس) ؟

– لأنك خنزير .

وهكذا افترقا الى الأبد .

لكنها بعد ان طردته هكذا شعرت بالرثاء والازدراء لذلك الرجل . وكانت تقول مخاطبة نفسها : : « ألم تكن معاملتي له قاسيه ؟ صحيح ان الرجل قد أغاظني ، ولكن عينيه كانتا تجرحاني أكثر من كلماته . وكان ينبغي أن أعامله بصورة أخرى . ويبدو ان المسكين يحتاج للعلاج ولكن ليس الذي يبحث هو عنه ، وانما آخر ، علاج

بطولي جذري » . وعندما علمت ان (دون خوان) يتداوى بدأت تفكر هل كان ما ينشده هو دفء البيت . وان كان ما لبث الشك ان تطرق الى نفسها ، فثارت على قلبها وقالت : «آه ، ما يحتاجه هو هو ربة بيت ، تعتني به ، وترقده في فراشه ، وتجعل ثيابه نظيفة ، وتعد له الطعام ... أسوأ ، أسوأ من العلاج ، فعندما لا تكون المرأة بمثابة العلاج فانها تكون حيوانا أليفاً ، وفي أكثر الحالات تكون الأمرين معا . هؤلاء الرجال ... اما قاذورات أو مقاعد . ثم بعد ذلك يقولون ان المسيحية أصلحت وضعنا نحن النساء » . وعندما خطرت لها هذه الخاطرة تذكرت خالها الطيب فرسمت على صدرها رسم الصليب وقالت : « لن أعود للتفكير بمثل هذا ... » .

ولكن من يقوى على صد جماح الفكر المشبع من ثمرات معرفة الشر ؟ واخيرا المسيحية ، على رغم المجدلية ، هي دين رجال هكذا كانت تقول (جرترودیس) لنفسها – الأب ، والأبن ، والروح القدس مذكر ... » ولكن الأم ؟ دين الأم في هذا : « هنا خادمة السيد ، أفعل بي بمقتضى كلمتك » وحين طلبت من ابنها أن يمون بعض الحفلات بالخمر ، الخمر الذي يسكر ، ويفرح ، ويجعل المرء ينسى همومه ، يقول لها الابن : « ما علاقتي بك أيتها المرأة ؟ لم تأت بعد ساعتي » . ما علاقتي بك . دعاها امرأة ولم يقل أمي ... وعاد فرسم الصليب على صدره ، وهذه المرة بارتعاش حقيقي . وهل أسر لها شيطانها الحارس : « واخيراً هو رجل » ــ هكذا كانت تظن .

* * *

انقضت أعوام هادئة رخية . كان اليتم ينشر فوق ذلك البيت الذي لم ينقصه شيء من الرفاهية ، نورا من الهدوء النفسي . لم يكن يحتاج للتفكير الا بيوم الغد . واستمرت الحياة فيه تحت أجواء أكثر عذوبة مما تكون عليه عندما كان الثلاثه يتنفسون فتملأ جسومهم أمكنتهم . الثلاثة هم (راميرو وزوجتاه) الذين تركوا (لجرترووديس) عجينة من لحم وعظم لتكيفها . كانت هذه تتحدث دائما لأولادها عنهم : « انظران والدتك تنظر اليك » . أو انظران والدك يراك » تلك هي التحذيرات التي كانت تستعملها . وكانت رسوم الماضين ترأس المكان .

ومع ذلك كان الصغار قد بدأوا ينسونهم . لم يكن لهم وجود بالنسبة للأولاد الا في كلام (ماما) (تولا) . هكذا كان هؤلاء يدعونها . وبدأت ذكريات كبيرهم (راميرين) تفقد وتندمج في الذكريات التي كانت الخالة تقصها عنهم . كان والده بالنسبة له ، اختراعاً منها .

والذي كان يقلق بال (جرترووديس) هو الحؤول دون أن تنشأ لديهم فكرة التفرقة ، اذ كان هنالك والدتان ، ولذا فهم ليسوا سوى أنصاف أخوة . لكنها لم تقو على تفادي ذلك . وخطر لها أول الأمر أن تقول لهم ان (روزا ومانولا) كانتا مثلها أما للجميع ، ولكنها تبينت استحالة دوام تلك الاكذوبة مدة طويلة . أضف الى ذلك حبها للحقيقة ذلك الحب الشديد جعلها تستنكر تلك الفكرة على الفور .

ذلك لأن حبها للحقيقة كان يتقمص حب الطهارة عندها . وكانت تثير اشمئزازها تلك الأقاصيص التي كانت تتناقل والتي يراد منها خداع الصبيان البسطاء ، كأن يقال لهم انهم يأتون بهم الى هذه الدنيا

من باريس حيث يشترونهم . « يا لها من رغبة طيبة لتبديد الأموال في سبيل بليد » . هذا ما قاله أحد الصبيان الذي كان اخوانه كثر ، عندما قيل له ان أحد أصدقائه سيأتي له والداه بأخ . « يا لها من رغبة طيبة اطلاق الأكاذيب على لا شيء » كانت (جرترو ديس) تقول ثم تضيف : « كل أكذوبة هي عبث على الأقل » .

– لقد قيل لي اني أنا ولد الخادمة والدي ، وان أمي خادمة أم أخوتي . هذا ما قاله ذات يوم ابن (مانولا) في البيت . فأجابته الخالة (تولا) بصوتها الهادئ الرصين أمام الجميع : – هنا كلكم أخوة لأب واحد ، وأم واحدة هي أنا .

– ولكن يا أماه ألم تقولي انه كان لنا أم أخرى ؟

– لقد كانت لكم أم ، ولكن أنا هي أمكم الآن . هذا تعلمونه . لا تتحدثوا بعد الآن بمثل هذا .

لكنها لم تتوصل للحؤول دون أن يبدو منها بعض التمييز ، وكان ذلك (لراميرين) بكر أبويه الذي أنجبه والده حين كان لايزال أثر الصدمة التي أحدثها اضطراره الى اختيار احدى الاختين عالقا في فؤاده . أو على الأصح كان عليه أن يقبل ما فرضته (جرترو ديس) من تعلقه (بروزا) وبالطفلة (مانولا) الوردة الصغيرة الضعيفة الشاحبة التي يخشى عليها أن تجف أو تذبل بفعل البرد والحر المبكرين .

وعن (راميرين) كبير الأولاد المطيع ذي الصوت الهادئ ، والهمس الشيطاني الشبيه بالصفير الذي طالما سمعته (جرترو ديس) وكأنه يخرج من أعماق روحها . وعندما كانت تسمعه كانت ترسم رسم الصليب على جبينها كما ترسم آخر على صدرها لأنها لا تستطيع

أن تصم آذان هذا ولا ذاك . وذلك الهمس المغري كان وكأنه يقول لها ان والده حين أنجبه كان يفكر بها هي ، (بجرترو ديس) أكثر من تفكيره (بروزا) . وعن (مانوليتا) ابنة موت ربيبة الملجأ ، كان كأنه يقول لها انه لولا تصميمها على تزويج (راميرو) للمرة الثانية ، لولا أجبارها أياه على أصلاح خطيئته ، وانقاذ ضحيته المسكينة (مانولا) فان تلك الوردة الشاحبه لم تكتب لها الحياة .

وما أكثر مالاقت من الصعوبات في تربيتها . لأن أول أولاد (راميرو) من (مانولا) أرضعته هذه ، أمه التي كانت خاضعة كحيوان أليف ، وساعدتها غريزتها الطبيعية فلم تحاول أن ترفض على رغم ضعفها الجسدي ، وكان على (جرترو ديس) أن تقف في وجه الرجل ، وجه زوجها (راميرو) لأنه حين رأى ضعف زوجته المسكينة أحب أن يحضر مرضعة لولده . ولكن (جرترو ديس) التي أجبرته على أن يتزوج تلك التي أرادت لها أن تصبح الأم التي تنجب ولده وترضعه ، (جرترو ديس) هذه قالت له : « ليس ما يضارع حليب الأم » . وحين رد عليها صهرها وقال : « أجل . ولكنها من الضعف بحيث يخشى عليها وعلى الولد الذي سيكون ضعيف الجسم هزيلا » . أجابته سيدة البيت قائلة : « اعذار وثرثرة . المرأة التي يمكن تغذيتها بوسعها أن تلد دائما ، والطبيعة تساعدها ، وبالنسبة للطفل أكرر قولي ان خير حليب له هو حليب الأم اذا لم يكن مسموما » . ثم أضافت وقد خفضت صوتها : « وما أظنك قد سممت دم زوجتك » . وكان على (راميرو) أن يرضخ . وذات يوم ثار الجدل عندما اقترح الرجل أن يفصل الولد عن أمه لأنه رأى زوجته الجديدة قد أصيبت بدوار .

فأخذت به من يده وانتحت به ناحية ، وقالت له : « ولكن ما هذا الالحاح يا رجل . قد يظن البعض ان الولد يضايقك ... » .

– كيف يضايقني الولد ؟ ... أنا لم أفهم .

– أنت لم تفهم ؟ أما أنا فأفهم .

– لأنك لم تفسري قولك ...

– أتريد أن أشرح ؟ هل تذكر شيئا عن ذاك البربري (باسكوالون) حارس حقلك في (ماخاديريا) ؟

– ماذا ؟ أذاك الذي وصفناه بعدم الأحساس عندما أبلغ بموت ولده ... ؟

– أجل .

– وما صلة هذا بذاك ؟ اكراما لله (يا تولا) .

– بالنسبة لي لقد تغلغل فعل ذاك الى أعماق روحي ، وترك أثرا بالغا فرغبت أن أتحرى عن جذور السبب .

– هذه هي طريقتك على الدوام ...

– أجل . لقد قال لي خالي المسكين انني مثل حواء معنية بمعرفة الخير والشر .

– وهل تحريت ؟ ...

– ان ذاك ... الرجل ...

– أكنت على وشك أن تقولي ؟ ...

– أقول ان وجود ذاك الصبي كان يحول دون أن يتمتع الرجل بزوجته بمنتهى الحرية . أفهمت ؟

– يا لها من بربرية .

ولكن (راميرو) كان قد وافق على ما رأته (جرتروديس) مفسحا المجال (لمانولا) لترضع ولدها .

والآن أصبح على هذه أن تربي الطفلة الصغيرة ابنة المتوفاة وقد اضطرت أن تسلمها لمربيه لقاء أجر على أن تبحث لها عن مرضعة . وكان هذا مرعبا لها . كان يرعبها لأنها كانت تخشى من أي مرضعة كانت ، وعلى الأخص اذا كانت عزباء ، أن تسممها ، سواء عن طريق الدم أو الحليب ، أو أن تتجاوز الحدود . وكانت تقول : « اذا كانت عزباء فذلك شر . عندئذ ينبغي مراقبتها لئلا تنصرف الى العريس أو لأي شخص آخر . واذا كانت متزوجة فذلك شر أيضا ، بل هو أسوأ من ذلك اذا كانت قد تركت ولدها لترضع الغريب » . وهذا ما كان يثير اشمئزازها بصورة خاصة . أن تبيع المرأة عصارة أحشائها ، عصارة الأمومة ليموت الطفل من الجوع أو لتقتر عليه في الغذاء ، وكان هذا يثير أحشاء أمومتها . وهكذا ظلت منذ بداية الأمر على خلاف مع مرضعات الطفلة الصغيرة المسكينة . وكان عليها ان تستبدل المرضعة كل أربعة أيام . ألا يمكن أن ترضعها هي ؟ وقد اضطرت أن تلجأ للتغذية الاصطناعية .

غير ان هذه الطريقة قد استحالت لديها فنا ، ثم شعرا ، وفي النهاية طبيعة أعمق من الغريزة العمياء . كانت عبادة وتضحية ، وقربانا . وأصبح الارضاع الاصطناعي بالنسبة (لجرتروديس) رمزا وأداة لشعيرة دينية . كانت تغسل الزجاجات . وتغلي الحلمات كلما استعملتها ، وتحضر الحليب ، وتعقمه بحماس وحذر كالكاهنة عند قيامها بشعيرة دينية . وعندما كانت تضع الحلمة المطاطية في فم الطفلة المسكينة

كانت تشعر وكأن ثديها يضطرب ، ويلتهب . وأحيانا كانت الطفلة تضع يدها فوق يد (جرترودیس) التي كانت تمسك زجاجة الرضاعة .

وكانت ترقد الطفلة معها كي تزودها بحرارة جسمها ، في حين كانت تحتفظ بزجاجة الحليب بجانبها فقد يجوز أن تستيقظ الطفلة ليلا وتطلب الطعام . وكثيرا ما خيل لها أن حرارة جسمها المنبعثة على دفعات من الأمومة العذراء ، من العذرة الأمومية كانت توفر لذلك الحليب الاصطناعي خاصة من خصائص الأمومة ، وحتى ان تلك الأحلام التي طالما ازدهرت على ذلك السرير المتوحد كانت تتسرب اليه بطريقة غامضة . وعندما كانت ترضعها بمثل تلك الطريقة وفي ظلام الليل ، أو عندما يكونان وحدهما كانت تضع ثديها الجاف ، والممتلئ دما في متناول يد الطفلة كي تضعها فوقه وهي تمتص عصير الحياة . وكان يخيل لها أن ذلك يوفر لها حلما عذبا وغامضا يثير النشاط في جسمها ، جسم اليتيمة . كانت تلك أحلام (جرترودیس) . وكيف ؟ هي نفسها لم تدرك ذلك ادراكا تاما .

وذات مرة تقيأت الطفلة فوق السرير الشديد النظافة ، فما لبثت ان شعرت (جرترودیس) بوخز تلك اللطخة . ولفرط ولعها بالطهارة المنبثق عنه تعظيمها القريب للنظافه ، تأثرت وكان لابد لها من بذل الجهد للسيطرة على نفسها . كانت تدرك أن لامفر من التلوث في الحياة . غير ان هذا التلوث يكون بريئا غير ان أركان نفسها كانت تتأثر به بصورة مؤلمة . ثم بعد ذلك تضم الطفلة الى صدرها طالبة بصمت أن تغتفر لها شغفها بالطهاره .

ومع ان (جرترودیس) كانت تولي تلك الطفلة المسكينة ابنة ميتة (مانولا) عناية أمومية ، تلك العناية التي كانت تخفي في ثناياها تكفيرا عن خطيئة وتعبدا أنيقا ، فانها لم تكن تغفل عن أولئك ، مجتهدة أن لا تظهر تمييزا للذين هم من دمها ، ولكنها كانت تهتم بصورة خاصة (برامیرین) ، وتتتبع تأديبه خطوة خطوة ، وتراقب كل ما يبدو منه مما يذكر بوالده الذي كان شديد الشبه به « هكذا سيكون عندما يصبح في مثل سنه » هذا ما كانت تفكر به الخالة ، وحتى انها بحثت بين أوراق صهرها حيث وجدت صورا له عندما كان صغيرا . فكانت تتأملها وتعيد التأمل لتكشف الابن فيها ، لأنها كانت تريد أن تجعل من هذا ما كانت تتصور أن تجعله من ذاك لو انها عرفته وتمكنت أن تجعله تحت حمايتها وتربيها عندما كان صغيرا ، وتتفتح أمامه سبل الحياة . وكانت تقول : « أن لا يخطي مثله ، وأن يتعلم أن يتريث لينتقي ، وان لايقيد ارادته قبل أن يرسي جذورها الحية في الحب الصحيح الشديد الوضوح الذي تنيره أنواره الخاصة » . لأنها كانت ترى ان الواجب يقضي قبل أن تغرس الفسيلة يجب أن ينظر أولا الى السماء قبل الارض ، ليس الى الحمار الأرضي ، وانما الى الأعراق النورية التي تصلها من الشمس ، وأن تنمو الشجيرة وترسي جذورها تحت أشعة شمس الظهيرة العذبة ، وليس فوق خمار موبوء قذر وفي الحلكة . النور هو الطهارة .

كانت تدرس كل ما كان على (راميرين) أن يتعلمه ، لأنها كانت تسمع له أمثولاته يوميا . وهكذا أشبعت رغبتها في التعلم التي

لازمها منذ الصغر والتي حملت خالها على أن يشبهها بحواء . وبين سائر الأشياء التي تعلمتها مع ابن أختها ، وعلمته أياها لم يرق لها مثل الهندسة . ما كانت لتظن ذلك . وفي استنباطات علم الهندسة الجاف البارد بالنسبة لبعضهم ، كانت (جرترود يس) تجد مالا تدريه من الاشراقات والطهاره . وبعد انقضاء أعوام وكان (راميرين) قد بلغ أشده ، وكانت جثة خالته قد أصبحت رفاتا تحت الأرض حيث لا يصلها نور الشمس ، تذكر هذا الفتى ما كانت خالته تظهره من الحماس ذات يوم من أيام الربيع النيرة وهي تشرح له كيف انه لايوجد سوى خمس صفاح صحيحة لا غير . ثلاثه من مثلث الزاوية . المجسم من أربعة ، المثمن من ثمانيه. ذو العشرين من عشرين . واحد مربع . المكعب من ستة . من المخمس واحد ذو الاثني عشر . « ولكن ألا ترى كم هو واضح ؟ » كانت تقول لي . هكذا كان ابن أختها يقول : « ألا ترى ؟ خمسة لا غير ولا تزد . ياما أحلاه . ولا يمكن أن يكون بصورة أخرى ، يجب أن يكون كذلك » . وعندما كانت تقول هذا كانت تريني النماذج الخمسة من الكرتون الأبيض الناصع التي صنعتها بيديها القديستين البارعتين في كل عمل ويبدو وكأنها اكتشفت بنفسها قانون الصفاح الخمس الصحيحة ... مسكينة الخالة (تولا) . وذكر ان أحد النماذج الخمسة وقعت عليه نقطة دهن فصنعت آخر لأنها كانت تقول لا تظهر الاستنباطات بسبب اللطخة . كانت ترى ان الهندسة نور وطهارة .

وبالمقابل كانت تتهرب من تعليمه علم التشريح والفيزيولوجيا : وكانت تقول « هاتان أقذار » اذ ليس بوسع أحد أن يعرف عنهما شيئا بصورة واضحة ومؤكدة » .

وكانت معنية بمراقبة ظهور بوادر المراهقة لدى ابن أختها أكثر من أي شيء آخر . كانت تريد أن ترشده في بداية احساسه أو شعوره بالحب . وان يكون حبه هذا الأول والأخير والوحيد . « ولكن هل هناك حب أول ؟ » كانت تسأل نفسها دون أن تقع على جواب قاطع .

وأكثر ما كانت تخشى منه على ابن أختها هي وحدته . الوحدة التي ينقصها النور تخيفها . بالنسبة لها لا وجود لوحدة مقدسة الا وحدة الشمس . ووحدة عذراء الوحدة عندما ظلت بدون ولدها شمس الروح . كانت تخاطب نفسها وتقول : « ان لا يسجن نفسه في غرفته . وأن لايتمكن من أن يظل وحده . فهنالك وحدة هي أسوأ رفيق . أن لا يقرأ كثيرا ، وعلى الأخص أن لايكثر من القراءة . وان لا يطيل النظر في الصور » . لم تكن تخشى على ابن أختها من الأحياء بمقدار خوفها عليه من الأموات ، أو الصور . وكانت تفكر : « الموت يأتي من الميت » .

كانت (جرتروديس) تعترف أمام معرف (راميرين) ، وذلك كي تقود قائد الصبي في قيادته له فتصبح هي في الحقيقة التي تقوده ، ولذا فهي في اعترافاتها كانت تتحدث عن نفسها أقل مما تتحدث عن ابنها البكر كما كانت تدعوه . وذات مرة قال لها الأب (الفاريس) : « ولكن يا سيدة أنت جئت الى هنا لتعترفي بخطاياك وليس بخطايا الآخرين ؟ » فأجابته هي : « هذا الصبي هو خطيئتي ... »

وحين أحست بميل من الصبي للزهد وقد يكون للتصوف هرعت الى الأب (الفاريس) وقد تملكها الذعر فقالت له : — هذا لا يمكن أن يكون يا حضرة الأب .

– واذا كان الله يدعوه الى هذا السبيل ...

– كلا . إنه لا يدعوه الى هذا . أنا أعلم . أنا أعلم أكثر منك . وحتى منه هو . هذه هي الحسية ... التي تستيقظ عنده .

– ولكن يا سيدة ...

– أجل انه يبدو حزينا ، والحزن ليس موهبة دينية . ولا يمكن أن يكون ندما . من أي شيء ؟ ...

– انها حكمة الله يا سيدة ...

– حكمة الله واضحة . وهذا غامض . انزع من رأسه هذا . لقد ولد هو ليكون أبا ، وأنا لكي أكون جدة .

– هل بدا ذلك ؟

– أجل . لقد بدا .

– ما أشد ما تنزعجين من هذا . تحرري من هذا الازعاج . . . لقد قال لي مئة مرة انه قضى على ذلك التفكير السيء .

– لا أستطيع يا أبت ، لا أستطيع .. . أريد أن لا يعلم بذلك أولادي . – انهم أولادي الحقيقيون ، أن لا يعلمه أولئك ، أن لا يعلموه يا أبت وان لا يتكهنوا به ...

– خففي عنك ياسيدة إكراما لله ، خففي عنك ... وابعدي عنك هذه التعليمات ... انها اغراءات شيطانية . لقد قلت ذلك مئة مرة ... كيفما كانت ... الخالة (تولا) التي نعرفها ، نقدرها ونعجب بها ... أجل نعجب بها ...

– كلا يا أبت ، كلا . أنت تعلم . ضمنا أنا أخرى ...

– ولكن ينبغي ستره ...

– أجل . ينبغي اخفاؤه . أجل ينبغي ستره . ولكن كثيرا ما يخطر لي أن أجمع أولاده ، أولادي ...

– أجل أولادك أنت .

– أجل أنا أم ، كما أنت أب ...

– دعك من هذا يا سيدة . دعك من هذا ...

– أجل . أن أجمعهم ، وأقول لهم أن كل حياتي كانت كذبا ، وغلطا ، وفشلا .

– أنت تتهمين نفسك يا سيدة . هذه ليست أنت . أنت الاخرى ... التي نعرفها جميعنا ... الخالة (تولا) ...

– أنا جعلت منه تعيسا يا أبت . لقد جعلته يهوى مرتين ، الأولى مع أختي ، والثانيه مع أخرى ...

– يهوى ...

– أجل يهوى . وذلك بعامل الزهو .

– كلا . لقد كان بدافع الحب . الحب الحقيقي .

– بدافع حب الذات يا أبت . قالت ذلك وطفقت تبكي .

– ٢٠ –

لقد نجحت في انقاذ ابن اختها من ذبذبات التصوف ، وانصرفت لمراقبته ، والبحث عن ظهور بوادر الحب الأول عنده . وكانت تقول له :

– تبصر جيداً يا بني ، ولاتتسرع لأنك متى عرضت واحدة للخطر فينبغي أن لا تهجرها ...

- ولكن (ماما) اذا لم يكن هنالك تعريض للخطر ... في البداية يجب الاختبار ...

- لا مجال للاختبار ، ولا لطول مدة الخطوبة . ولا لمثل هذا : « أنا أتحدث مع فلانه » . دائما برصانه .

والواقع هو ان الخالة (تولا) كانت من ناحيتها قد اختارت وجربت أن تحمل (راميرين)بلطف على الارتباط بتلك التي اختارتها له .

– يبدو انك تنظر الى (كاريتا) – قالت له ذات يوم .

– بش .

– وهي تنظر اليك اذا لم أكن واهمه .

– وأنت تنظرين نحو الاثنين على ما يبدو ...

– أنا ؟ تلك قضية خاصة بك يا بني . خاصة بك ...

ولكنها مضت توجه الواحد نحو الأخرى . وتوصلت الى ما تبتغيه . ثم أرادت أن تحملهما على الزواج بأقرب وقت . وكانت تقول : « لتأتي الى هنا فنعيش جميعنا معا فهنالك متسع للجميع ... ابنة بزيادة » .

وحينما جاءت (بكاريتا) الى منزلها كزوجة لابن اختها اصبحت هذه نجيتها ومنها أصبحت تحاول الحصول على دخيلة ابن أختها .

وأجبرتها منذ البداية على أن تخاطبها بصيغة المفرد وأن تدعوها (أمي) . وأوصتها بصورة خاصة أن تعتني بالصغيرة ، بالهادئه ، الساكنه ، الهلعة (مانوليتا) . وكانت تقول لها :

– اسمعي (يا كاريداد) . اعتني بصورة خاصة بهذه المسكينة البريئة ، والمعرضة للتحطم ، والطيبة كالخبز ... انها من صنعي ...

– ولكن ما دامت قليلا ما ترفع صوتها ... وما دامت لا تمشي في البيت ... يبدو انها تستحي من الظهور .

– أجل ، أجل هي كذلك . حاولت كثيراً أن أبعث الجرأة في نفسها ، غير انها اذا لم تكن لاصقة بجنبي فانها تكون ضائعة . طبعا لأنها ربيت على الرضاعة .

– القضية هي انها مجدة ، ومطيعة ، وخدومة لكنها قليلة الكلام ... ثم أننا لم نسمعها تضحك مرة واحدة أبدا ...

– الا أنها بعض الأحيان عندما أكون أنا وهي وحدنا ، يتغير وضعها وتصبح (مانوليتا) أخرى ... عندئذ تنتعش ، فأحاول تشجيعها ، ومواساتها فتقول لي : « لا تتعبي نفسك يا أماه ، فأنا هكذا ... وفضلا عن ذلك فلست حزينة ... » .

– ولكنها تبدو كذلك ...

– أجل ، تبدو كذلك ، ولكني توصلت أن أعتقد انها ليست كذلك ، أنا ، أنا نفسي كيف أبدو لك (يا كارتيا) حزينة أم مسرورة؟

– أنت يا خالة ...

– ما هذه الطريقة في الكلام أنتم بصيغة الجمع ، وخالة ؟

– حسن ، أنت ... يا أماه ، أنت ... لا أدري على أي حالة أنت . حزينة أم مسرورة . ولكني أظن أنك مسرورة ...

– هل أبدو لك كذلك ؟ اذن يكفي .

– على الأقل أنت تبعثين السرور في نفسي ...

– ولأجل هذا بعث الله بنا الى الدنيا ، لادخال السرور الى قلوب الاخرين .

– ولكي ندخل السرور الى قلوب الغير ينبغي أن نكون مسرورين ..

– أو . لا ...

– وكيف لا ؟

– لا شيءَ يبعث السرور مثل شعاع الشمس ، وعلى الأخص اذا وقع على خضرة أغصان شجرة ، وشعاع الشمس ليس مسروراً ولا حزينا . ومن يدري ... فقد تستهلكه حرارتها ... شعاع الشمس يسر لأنه نظيف . وكل ما هو نظيف يسر ... وهذه المسكينة (مانوليتا) يجب أن تسر لأنها نظيفة ...

– أجل . هذا صحيح ، وخصوصا عيناها اللتان تشبهان ...

– تشبهان حوض ماء هادئين بين الخضرة ... كثيراً ما تأملتهما وعن قرب . ولست أدري من أين جاءت بهما ... انهما لا تشبهان عيني أمها اللتين كانتا كعيني مسلولة . عكرتين بفعل الحرارة ... وليستا كعيني أبيها اللتين كانتا ...

– أتدرين ما تشبهان تانلك العينان ؟

– من ؟ – قالت (جرتروديس) تسأل وهي ترتعش عندما سألت .

– انهما تشبهان عينيك ...

– قد يمكن ... قد يمكن ... انني لم أتأملها أبدا عن قرب . ولست أقوى على تبين أعماقهما . ولكن قد يمكن ... قد يمكن ... على الأقل لقد علمتها أن تنظر ...

* * *

ما الذي أصاب (جرترو ديس) المسكينة انها تذوب داخليا ؟ مما لاشك فيه انها أدت رسالتها في هذه الدنيا . لقد تركت ابن اختها الكبير (راميرو ، راميروها) الآخر في منجى من أسوأ العواصف ، وقد استقل زورقه في الحياة ، وتركت الآخرين تحت رعايته . لقد غادرت البيت مشتعلا وتركت فيه من يسهر على ناره . لقد باتت تشعر باضمحلال ، وباغماء ، وخلال أيام كاملة كانت ترى كل شيء ملفعا بالضباب ، أو طفاوة ، أو دخان . وأصبحت تراودها الأحلام كما لم تعرف ذلك من قبل قط . كانت تحلم بما كان سيكون من أمر (راميرو) لو انه ترك (روزا) لأجلها ، ثم تنتهي الى القول بأن الأمور ما كانت لتكون الا كما كانت . ولكنها هي عبرت الدنيا خارج الدنيا . غير ان الأب (الفاريس) كان يرى ان المسكينة (جرترو ديس) أصبحت تهذي مبكرة . وان ذكاءها العتيد أخذ يضعف ، وانه يضعف بمقدار صلابته ، وان من الواجب حمايتها من الاغراءات القديمة .

وعندما تقدمت منها (كاريداد) ذات يوم ، وأسرت لها في أذنها « أماه » هتفت قائلة عندما رأت احمرار وجهها : « ماذا ؟ هل تم ؟ « أجل تم » فقالت : « هل أنت متأكدة ؟ متأكدة ولولا ذلك لما كنت اخبرتك » . فأحست (جرترو ديس) كأن سيفا من الثلج قد اخترق قلبها لفرط ما ساورها من السرور . لم يعد لها ما تفعله في هذه الدنيا بعد الآن الا انتظار الحفيد ، حفيد أقربائها ، حفيد (راميرو) (وروزا) . حفيدها هي . ثم الذهاب لنقل نبأ الحادث السعيد اليهما . لقد خصصت عنايتها (لكاريداد) التي أصبحت ، بالنسبة لها تملأ البيت ، وحتى انها باتت تهمل المسكينة (مانوليتا) ضنيعتها

التي بدأت تتألم لذلك . لقد شعرت ان الحظ قد ألقى بها في الظلام .

– تعالي الى هنا . – قالت (جرترووديس) (لكاريداد) حين انفردت بها ذات مرة ، وهي مناسبة طالما انتظرتها – تعالي الى هنا ، واجلسي بجانبي ... هل تشعرين به يا بنيّتي ؟ هل تشعرين به ؟

– بعض الأحيان ...

– الا يصيح ؟ ألا يستعجل خروجه الى النور ؟ الى نور الشمس ؟ لأنه هنا في ظلام ... وان كان في دفء واطمئنان ... ألا يدفع ؟ اذا تأخر فسوف لن يراني ... سوف لن أراه ... يعني اذا تأخر . كلا . اذا عجلت أنا ...

– يا أماه لا تقولي مثل هذا الكلام ...

– أن لا أقول يا بنيّتي . ولكني أحس ووكأنني أذوب ... لم أعد أصلح لشيء ... أرى كل الأشياء ملفعة ... كما في الحلم ... لا أستطيع الآن أن أقول ان لون شعرك أسود ، أو أشقر لو لم أكن أعرف ذلك من قبل .

وراحت تداعب شعرها الأشقر وهي تردد : « أشقر » « أشقر » كالشمس ، كما لو كانت تبصر بأناملها ... .

– اذا كان ذكرا فأنت تعلمين ان اسمه (راميرو) ، واذا كانت أنثى (فروزا) ...

– كلا يا أماه . وانما اسمها (جرترووديس) ... (تولا) الأم (تولا) .

– (تولا) ... حسن ... والأحسن اذا كان توأما ، طفل وطفلة ...

– يا الله . أماه .

– وماذا ؟ أتظنين أنك لا تقوين على تحمل ذلك ؟ أتحسبينه عملاً شاقاً ؟

– كلا . لا أدري ... لا أعلم شيئا عن هذا يا أماه . ولكن ...

– أجل هذا هو العمل التام . توأم . ذكر وأنثى كانا متعانقين عندما لم يكونا يعلمان شيئا عن الدنيا . عندما لم يكونا يدركان انهما موجودان . كانا متعانقين في كنف دفء أحشاء الأمومة ... مثل هذا يجب أن يكون أيتها السماء ...

– يا لها من أشياء تخطر على بالك (يا ماما تولا) .

– ألا ترين انني قضيت الحياة حالمة ...

وبينما هي تحلم بمثل هذا ، وكأنها ترغب في أن تحمل في صدرها هذا الحلم كزاد سفر لتودعه بطن الأم الأرض ، أصيبت المسكينه (مانولا) بمرض شديد فقالت (جرترروديس) آه . « أنا الملومة . أنا التي أهملتها ، أنا أهملت هذه الطفلة المسكينة ، هذا الهزار بسبب توأم الحلم ... فما لا شك فيه هو انها عندما افتقدت قربي منها سرقها البرد ... » وأحست وكأنها استردت قواها بأعجوبة ، واستنار ذهنها وانصرفت للعناية بالمريضة .

– ولكن يا أماه ، دعيني أعتني بها – قالت لها (كاريداد) – نحن نعتني بها جميعنا ... أنا ، (وروزيتا ، والفيرا) نعتني بها .

– كلا ليس بوسعك انت أن تعتني بها كما ينبغي . ليس بوسعك أن تعتني بها . أنت مدينة لما تحملينه . لما تحملين ، ولا يجوز أن تضري الآخر بسبب عنايتك بهذه ... وبالنسبة (لروزا) (والفيرا) فهي أختهما وتحبانها كالأخت ولكنهما لا تجيدان هذه الأمور . وفوق ذلك ،

ومع أن المسكينه تستكين لكل شيء ، الا أنها لا تطمئن بدون وجودي ... انها تجد لذة بكوب ماء أقدمه لها أكثر من كل ماتقدمونه في سبيلها . أنا وحدي أعرف كيف أسوي لها المخدة بحيث لا تسبب لها وجع الرأس ، ولا تصاب بكابوس ...

– أجل هذا صحيح ...

– واضح . فأنا ربيتها ... وعلى عاتقي يقع عبء العناية بها . لقد انتعشت . وعاد لها ما كانت تتمتع به في أيامها البطولية من لباقة وعناية فائقتين . لم تعد تشعر برعشه اليد ، ولا بضعف الساقين . وعندما كانت تمسك الكأس ، وجرعة الدواء التي كانت تعطيها اياها بعض الأحيان ، كانت المريضة المسكينة تضع كلتي يديها الحارتين في يديها الثابتتين الناعمتين فترق حولهما اشراقات ذكريات عذبة ربما كانت قد امحت من ذاكرة طريحة الفراش . ثم تجلس الخالة (تولا) بجانب السرير ، وتظل هناك بينما تكون تلك لا تأتي شيئا سوى النظر اليها وهي صامتة .

– هل سأموت يا (ماما) ؟ – قالت الطفلة تسألها .

– ستموتين ؟ كلا . يا عصفورتي المسكينة . كلا . يجب أن تعيشي ...

– مادمت حية ...

– وبعدي ... وبعدي ...

– بعدك ... كلا ... ولماذا ؟

– ولكن الفتيات يجب أن يعشن ...

– ولماذا ؟ ...

– لكي يعشن ... لكي يتزوجن ... ولكي يصنعن عائلات ...

– ولكن أنت لم تتزوجي (ماميتا) ...

– كلا . أنا لم أتزوج . ولكني كما لو كنت قد تزوجت ... ويجب عليك أن تعيشي لتعتني بأخيك ...

– هذا صحيح ... بأخي ... بأخي ...

– أجل . بالجميع ...

– ولكن يقولون يا أماه انني لا أصلح لشيء .

– من يقول هذا القول يا بنيّتي ؟

– كلا . انهم لا يقولون . لا يقولون ... ولكن هكذا يفكرون ...

– وكيف علمت انهم بهذا يفكرون ؟

– ذلك لانني أعلمه ... وفضلا عن ذلك لأنه حقيقة ... لأني لا أصلح لشيء أبدا . وبعد موتك فليس لي ما أعمله هنا ... اذا أنت داهمك الموت فسأموت أنا من البرد ...

– هيا . هيا . التحفي بلحافك جيدا ولا تعودي للتحدث بمثل هذا الكلام . وأنا ذاهبة لأعد لك العلاج . ...

وذهبت عنها كي تخفي دموعها ، ولتلقي بنفسها عند قدمي تمثال عذراء الوحدة ، ولتتضرع اليها : « حياتي فداء لحياتها أيتها الأم . حياتي فداء حياتها . انها تشعر بأني ذاهبة ، وان أمواتي يدعونني ، وهي تريد أن تذهب معي . ترغب في أن تلتصق بي ملتحفة بالأرض ، هنالك في الأعماق ، حيث لا يبلغ نور الشمس ، فأواليها أنا دفأً لا أدري ما هو ... حياتي فداء لحياتها يا أماه . حياتي فداء لحياتها . أن لا تعجل في السقوط تلك الستارة من التراب والظلمات فوق تينك

العينيين اللتين لا يخبو نورهما ، فوق تينك العينين اللتين يقولون انهما عيني ، فوق تينك العينين اللتين لم أترك لهما نطخة ... أجل أنا ... أن لا تموت ... أن لا تموت ... انقذيها يا أماه . وان كان علي أن أذهب دون أن أرى القادم ... » .

وتقبل الله دعاءها .

وعادت الحياة تدريجيا لتلك الطفلة المسكينة . واستردت تورد خديها . وعادت لترى النور عندما يسقط على أغصان الأشجار الخضراء في حديقة البيت الصغيرة . ولكن الخالة أصيبت بالتهاب رئوي خلال أيام نقاهة (مانوليتا) . وعندئذ أحست هذه وكأن دفقة من العافية قد انصبت في أحشائها لأن عليها أن تعتني بتلك التي وهبتها الحياة .

وقد تولت الدهشة جميع سكان البيت لما ظهر من مظاهر التجلي على تلك الطفلة .

قالت (جرترود يس) تخاطب (كاريداد) : – أبلغي (مانوليتا) أن لا تجهد نفسها بهذا المقدار لأنها مازالت ضعيفة ... وأنت أيضا على افتراض . فأنت مدينة لذويك كما تعلمين ... ويكفيني (روزيتا والفيرا) ... هذا مع العلم ان كل شيء غير ذي جدوى ... ذلك لأني قد أكملت ...

– ولكن يا أماه .

– لا شيء . وكما قلت أن لا تسرف حمامة الله في تبديد حيويتها ...

– ولكنها استعادت قوتها ... ما كنت لأعتقد ذلك ...

– وهي التي كانت تريد أن تموت ، وتعتقد انها ستموت ...

وقد خشيت عليها لأني رأيتها ضعيفة ... طبعا هي لم تعرف أباها الذي كان على فراش الموت عند ولادتها ... وبالنسبة لأمها المسكينة أنا أعتقد انها عاشت ميتة ... ولكن هذه الطفلة قد بعثت .

– أجل ، بُعثت عندما رأتك في خطر .

– صحيح . هي ابنتي .

– أكثر ؟

– أجل . أكثر . أريد أن أصرح لك وأنا على عتبة الأبدية ، أجل أكثر . هي وأنت .

– هي وأنا ؟

– أجل هي وأنت . لانكما لستما من دمي . هي وأنت . هي من دم (راميرو) وليس من دمي ، ولكن أنا التي صنعتها . انها من صنعي . وأنت زوجتك من ابني .

– أعرف ذلك ...

– أجل . كما زوجت والده من والدته أختي . ثم عدت فزوجته من والدة (مانوليتا) ...

– أعرف ذلك ... أعرف ذلك ...

– أنا أعرف انك تعرفين ، ولكن ليس الكل ...

– كلا . ليس الكل ...

– ولا أنا أيضا ... أو على الأقل لا أريد أن أعرفه . أريد أن اغادر هذه الحياة دون أن أعرف أشياء كثيرة ... لأن هناك أشياء معرفتها تلطخ ... هذه هي الخطيئة الأولى ... و الأم العذراء المقدسة ولدت ولم تلصق بها الخطيئة الأولى ...

– ولكني سمعت ان بعضهم يقول انها كانت تعرف كل شيءْ...

– كلا . لم تكن تعرف كل شيء . لم تكن تعرف علم الشر ... فهو علم ...

– حسن ، لا تكثري من الكلام يا أماه فقد يضرك ...

– أكثر ما يؤذيني هو التفكير . واذا لم أتكلم أفكر ... أفكر ...

– ٢٢ –

لم يعد جسم الخالة (تولا) قادرا على المقاومة طويلا . كانت روحها ترف داخله كعصفور في قفص يكاد يهتري ، ويفارقه بألم من يعذب ، الا أنه يتوق للتحليق فوق طبقات الغيوم . سوف لن ترى الحفيد . أيؤلمها ذلك ؟ كانت تحلم بأنها « سوف تعلم هناك حين تصبح معهم ، ما هو . هل هو طفل أم طفلة ... أو الاثنان معا ... ستعلم هناك أكثر من هنا ، اذ من الأعالي تكون الرؤية أفضل ، وأطهر منها هنا على الأرض » .

الحمى الأخيرة التي أصابتها اضطرتها إلى ملازمة الفراش ، وتعذر عليها تمييز أبناء أختها الا عن طريق الخطو ، وعلى الأخص (كاريداد) و (مانوليتا) . كان خطو (كاريداد) يبدو لها كخطو طفلة مثقلة بالثمار ، وحتى انه كان يبدو لها انها تشم ريح النضوج . أما خطو (مانوليتا) فكانت تحس انه خفيف كخطو عصفور لا يعرف اذا كان يمشي أم يطير على الأرض . وكانت تقول مخاطبة نفسها : « عندما تدخل هي أحس بخفيف أجنحة تغلق وتهدأ » .

حاولت أن تودع هذه أولا ، وعلى انفراد فاهتبلت فرصة قدومها اليها حاملة العلاج ، فأخرجت ذراعها خارج السرير وأبدت حركة

كمن تباركها ، ووضعت يدها على رأسها فطأطأته هذه مخضلة العينين بالدموع وقالت لها : — يا لك من حمامة لا تحمل ضغينة . هل مازلت ترغبين في أن تموتي ؟ الحقيقة .

— اذا كنت أتوصل ...

— أن لا أموت . هيه ؟ كلا. لا ينبغي أن ترغبي بالموت ... لديك أخوك ، أخوتك ... لقد كنت بقربهم. ولكن يبدو لي ان التجربة قد شفتك من هذه الأشياء . أليس كذلك ؟ قولي لي كمن تعترف لأنني أرغب في نقل اعترافك المونيا ...

— أجل لم تعد تراودني تلك الصبيانيات .

— صبيانيات ؟ كلا . لم تكن صبيانيات . آه . والآن وقد ذكرت الصبيانيات ، أحضري لي لعبتك فأنت تحتفظين بها . أليس كذلك ؟ أجل أنا أعلم انك تحتفظين بها ... أحضري لي اللعبة . أتعلمين ؟ أريد أن أودعها أيضا . وان تودعني هي ... أما زلت تذكرين ؟

— أجل يا أماه ، لا أزال أذكر .

— ماذا تذكرين ؟

— عندما سقطت مني في الهوة وطفقت أبكي فوصفتني (الفيرا) بالغبية ، وقالت لي : لا يفيد البكاء في شيء ...

— هذا ... هذا ... وماذا غير ذلك ؟ هل تذكرين شيئا آخر ؟

— أجل . لا أزال أذكر القصة التي قصصتيها يومئذ ...

— هات . لنر . أي قصة ؟

— قصة الطفلة التي سقطت لعبتها في بئر جاف حيث يتعذر عليها الهبوط لاخراجها ، فأقبلت تبكي ، وتبكي . بكت كثيراً الى أن امتلأ البئر بدموعها فطفت اللعبة وخرجت من البئر ...

ـ وبماذا عاقبت (الفيرا) على ذلك . وماذا قالت ؟ فأنا لا أذكر .

ـ أجل . أجل أنت تذكرين يا أماه ...

ـ حسن . وماذا قالت ؟

ـ لقد قالت ستصبح الطفلة جافة وتموت الكثرة بكائها ...

ـ وماذا قلت أنا ؟

ـ أكراما لله يا أماه ...

ـ حسن . لا تقوليه . ولكن لاتبك هكذا يا حمامتي . لا تبك هكذا ... اذ مهما بكيت فسوف لن تملىء بدموعك البئر الذي سأسقط فيه وان أطفو ...

ـ قد يمكن أن يكون ...

ـ آه . اذن . اذا أمكن أن يكون فسأخرج للقبض عليك وحملك معي ... ولكن يجب التريث الى أن تحين الساعة . اعتني بأخوتك . أنا أدعهم على عهدتك . هل تدرين ؟ على عهدتك . اعملي على أن لا يعلموا انني مت .

ـ سأفعل كل ما بوسعي ...

ـ أن لا يعلموا انني قدمت ... وسأعينك من الأعالي .

ـ سأصلي لأجلك يا أماه .

ـ الى العذراء يا بنيتي . الى العذراء ...

ـ سأصلي لأجلك كل ليلة قبل أن أتوسد فراشي .

ـ حسن . لا تبكي هكذا ...

ـ ولكني لا أبكي . ألا ترين انني لا أبكي ؟

ـ كي تغسلي عينيك لا بأس بالبكاء عندما ترين اشياء قبيحة . ولكنك لم تشاهدي أشياء قبيحة . ولا يمكن أن تشاهديها ...

ـ واذا حدث ذلك ، فسأغمض عيني ...

ـ كلا . كلا . هكذا تبدو الأشياء بصورة أكثر قبحا . صلي لأجل أبيك ، وأمك . ولأجلي ... لاتنسي أمك ...

ـ سوف لن أنساها ...

ـ لأنك لم تعرفيها ...

ـ أجل . أنا أعرفها .

ـ أقصد الأخرى تلك التي جاءت بك الى الدنيا .

ـ أجل . أنا أعرفها . والفضل لك . أعرف الأخرى .

ـ مسكينة . انها لم تعرف التي لها ...

ـ أنت كنت أمها . أعرف ذلك جيدا .

ـ حسن . ولكن لا تبكي ... .

ـ لست أبكي . ـ قالت ذلك ومسحت عينيها بمؤخر كفها الأيسر بينما كانت تمسك بيمناها المرتعشة قارورة العلاج .

ـ حسن . والآن آتني باللعبة لأني أرغب في أن أراها . آه . هناك في أحدى زوايا تلك القنطرة ، قنطرتي تلك التي تعرفينها ... هنالك يوجد المفتاح ... أجل هذه . هي هنالك حيث لم يمسسها أحد الا أنا ، وبعض الأحيان أنت . هنالك بجانب تلك الرسوم . أتدرين ؟ توجد لعبة أخرى ... لعبتي ... تلك التي كانت لي عندما كنت طفلة... حناني الأول ... الأول ؟ ... حسن آتني بها أيضا ... ولكن على أن لا يعلم أحد من هؤلاء لئلا يقولوا انها صبيانيات ، لأننا نحن الصبيانيات آتني باللعبتين لأودعهما ، ثم بعد ذلك نعود الى وقارنا ، ونتهيأ لوداع الآخرين ... اذهبي فقد خطرت لي فكرة سيئة ـ قالت ذلك ثم رسمت رسم الصليب على صدرها .

كانت الفكرة السيئة هي وسوسة شيطانية قامت في أحشائها المتألمة وأوحت لها : « الجميع أموات » .

— ٢٣ —

ثم ودعت الجميع وأيضا (كاريداد) .

— هكذا يا أبنائي . الحمى الأخيرة ، بداية نار المطهر ...

— ولكن ما هذا الكلام الذي تتكلمينه يا أماه ؟

— أجل نار المطهر ، لا وجود للنار في الجحيم ... الجحيم من الثلج ، وليس الا من الثلج . انها تكوي لحمي ... وشد ما يؤلمني هو ذهابي دون أن أرى القادم ، أو القادمة ، أو القادمين الينا ...
وليس الا من الثلج . انها تكوي لحمي ... وشد ما يؤلمني هو ذهابي دون أن أرى القادم ، أو القادمة ، أو القادمين الينا ...

— هيا دعينا يا أماه ...

— حسن . اسكتي (يا كاري) ولا تأتينا الآن بما يخجل ... لأني أريد أن أقص كل شيْ على أولئك الذين يدعونني اليهم ... هيا لاتبكي هكذا ... انهم هناك ... الثلاثة ...

— ولكن لا تتكلمي مثل هذا الكلام .

— الآن تريدينني أن آتي بما يضحك ؟ الصبيانيات جئت بها أنا و(ماتويليتا) . غبيتا البيت الاثنتان . وعليّ الآن أن آتي ما يذكر في الكتب ...

— حسن — لا تكثري من الكلام . هكذا أمر الطبيب أن لا تكثري من الكلام .

— أأنت هنا (يا راميرو) ؟ الرجل . أتقولين الطبيب ؟ وماذا

يعرف الطبيب ؟ لا تقيمي الكلامه وزنا . .. وفوق ذلك انه لمن الأفضل أن يعيش المرء ساعة واحدة وهو يتكلم من أن يعيش يومين وهو صامت . الآن هو وقت الكلام . وفضلاً عن ذلك فأنا أتسلى وأنسى أشيائي .

– أنت تعلمين ان الأب (الفاريس) قد قال : فكري الآن بأشيائك ...

– آه . أأنت هنا (يا الفيرا) العاقلة ؟ وماذا عن الأب (الفاريس). ايه ؟ ... رجل العلاج ... وماذا يعرف الأب (الفاريس) ؟ طبيب آخر ، ورجل آخر ، وفضلاً عن ذلك فليس لدي أشياء خاصة للتفكير فيها ... لا أشياء لدي ... أشيائي هي أشياؤكم .... وأشياؤهم ... أشياء الذين يدعونني ... أنا لست من الاحياء ولا من الأموات ... ما كنت قط حية ولا ميتة ... ماذا ؟ ما تقول هناك (يا انريكي) ؟ انني أهذي ...

– كلا . أنا لم أقل هذا ...

– أجل لقد قلت هذا . لقد سمعتك جيدا . همست به في أذن (روزيتا) ... ألا ترى انني أسمع حفيف الهواء بين اجنحة (مانوليتا) الهادئة . اذن هو هذيان ... ماذا ؟

– ينبغي أن تستسلمي للراحة .

– ارتاح ... ارتاح ... لدي وقت للراحة .

– ارتاح ... ارتاح ... لدي وقت للراحة .

– ولكن لا تكشفي الغطاء هكذا ...

– ولكني أعانق ذاتي ... أنت تعلمين (يا كاريداد) . (تولا) ،

(تولا) باسمي ... وهو (راميرو) ... اذا كان اثنين هو وهي ، يحتضنان في كنف الدفء ...

وسادت فترة صمت . وعندما سمعت المحتضرة صوت بكاء متقطع ومكبوت أضافت :

– ينبغي أن تتشجعوا . فكروا جيدا . جيداً بما أنتم مقدمون على عمله . فكروا جيدا ... فسوف لن تندموا اذا فعلتم ، وستكونون أقل ندما اذا لم تفعلوا ... واذا رأيتم من تحبون قد سقط في مستنقع موحل ، ولو كان في بئر أسود ، أو مجرور فبادروا لانقاذه حتى ولو تعرضتم لخطر الاختناق ... كيلا يختنق هو هناك ... اختنقوا معه ... في المجرور . كونوا له بمثابة العلاج . أجل بمثابة العلاج ... ان تموتوا في الأقذار والأوحال ؟ لا يهم ... ليس بالوسع انقاذ الرفيق طيرانا فوق المجرور إذ لا أجنحة لنا . لا أجنحة لنا ... أو هي أجنحة دجاجة ليست للطيران ... وحتى ان الأجنحة قد تتسخ من رشاش الأوحال التي تتطاير عن الفريق ... كلا . ليس لنا أجنحة ، وعلى الأقل أجنحة دجاجة ... ولسنا ملائكة ... سنكونها في الحياة الأخرى ... حيث لا أوحال ولا دماء . في المطهر توجد أوحال حارة تحرق وتطهر ... أوحال تطهر . أجل . في المطهر يحرق الذين أبوا أن يغتسلوا في الأوحال.. أجل في الأوحال ... يحرقون في الزبل الحار ... ويغسلون بالأقذار ... هذا آخر ما قد أقوله لكم . لا تخشوا الأقذار ... صلوا لأجلي كي تغفر العذراء لي .

وأصابها أغماء . وبعد أن أفاقت منه لم تعد تقوى على تنسيق أفكارها . ودخلت في حالة احتضار عذبة . وانطفأت كما تنطفيءُ

أمسيه من أمسيات الخريف عند آخر أشعة الشمس المتسربة عبر الغيوم المصطبغة بلون الدماء ، تنحل في ماء الجدول المتفرع عن النهر الهادئ الذي تبدو فيه أشجار الحور ذات الأغصان التي استحالت حمراء بلون الدم أيضا ، والتي تحرس ضفافه .

— ٢٤ —

هل ماتت الخالة (تولا) ؟ كلا . لكنها بدأت تحيا في العائلة ، وتشع حياة جديدة أشد اشراقا في العائلية الخالدة . أصبحت الآن بالنسبة لأولادها وأبناء أختها الخالة . لا أكثر من الخالة . لا الأم ، ولا (ماما) حتى ولا الخالة (تولا) ، وانما الخالة فحسب . كان هذا بمثابة تضرع ، تضرع ديني حقيقي ، وكتقديس المقدسات البيتية . حتى (مانوليتا) ابنتها ، ووارثة روحها ، ومجمع شعاراتها لم تعد تدعوها الا الخالة .

كانت تحافظ على وحدة العائلة وتماسكها . واذا كان عند موتها قد ظهرت للعيان انقسامات داخلية كانت من قبل مكتومة ، واتحادات دفاعية وهجومية بين الاخوان ، فان تلك الانقسامات قد نتجت عن الحياة العائلية التي أوجدتها هي . روحها أثارت ذلك التنافر ، وفوقه وتحته أقامت الوحدة الأساسية والنهائية للعائلة — كانت الخالة (تولا) دعامة ذلك البيت و سقفه .

وقد تشكل في هذا البيت مجموعتان . كانت (روزيتا) ابنة (روزا) الكبرى في احداها ، متحدة مع (كاريداد) زوجة أخيها ، وليس مع شقيقها ، ليس مع (راميرو) . وفي الثانية (الفيرا) ابنة (روزا)الثانية متحدة مع (انريكي) أخيها غير الشقيق وابن ربيبة

الملجأ . وظل خارج المجموعتين (راميرو) (ومانوليتا) . كان (راميرو) يعيش ، وبأصح تعبير كان يدع نفسه يعيش مكرساً نفسه للعناية بولده ، وللمستقبل الذي يمكن أن يعده له الآخرون ، ولعلاقاته المدنية ، وكانت (مانوليتا) تهتم كثيراً للابقاء على تقديس (تولا) ، وتقاليد البيت .

وكانت (مانوليتا) تطمح لأن تصبح صلة الوصل الممكنة بين أربع عائلات مقبلة ممكنة . لقد تطورت بعد موت الخالة ، وكانت تحتفظ بكافة معلوماتها ، وسائر نفسها ، وعباراتها المتقطعة والحادة ، وأحيانا كانت تكرارا لما سمعته من غيرها ، ومعتقداتها وطريقتها في التعبير ، وحتى حركاتها . « خالة أخرى » كان أخوتها يهتفون وليس دائما عن رضى . وكانت تحتفظ بسجل الأخرى وكنزها ، ومفتاح الأدراج السرية التي خرجت منها بلحمها ودمها . وظلت تحتفظ الى جانب لعبتها التي كانت لها أيام صغرها ، بلعبة (تولا) وببعض الرسائل ، وكتاب الأدعية والصلوات اللذين كانا (لدون بريميتيفو). كما كانت هي من بين جميع أفراد العائلة التي تحفظ غيباً ما قاله وما فعله أسلافهم . عن (دون بريميتيفو) الذي لم يكن دمها من دمه ، عن أم (راميرو) الأول ، عن (روزا) . عن أمها هي (مانولا) ربيبة الملجأ — هذه لم تترك الا قولا ولا عملا ، وانما صمت وأهواء . كانت هي التاريخ البيتي . بهذه تمتد أبدية العائلة الروحية . هي ورثت روح هذه ممثلة روحيا (بتولا) .

وراثة ؟ في قفير النحل تنتقل الروح ، روح النحل ، وتقاليده ، وفن صناعة العسل ، والحلية عن طريق الوراثة . غريزة النحل ، ولا

تنتقل عن طريق اللحم والمجاجه . والحسية تخلد بواسطة اليعاسيب والملكات . ولكن هذه لا تعمل أبدا . ولا تحسن صناعة الخلية ولا جني العسل أو العناية باليرقات . وما دامت لا تعرف ذلك فانها لا تستطيع نقل هذه المعرفة عن طريق اللحم والمجاجه الى صغارها . تقاليد النحل الفنية سواء صنع العسل أو الخلايا أو الشمع هي أشياء جانبيه ولا تنتقل عن طريق اللحم ، وانما بواسطة النفس . والفضل فيها للخالات ، للنحلات التي لا تلقح البيض ولا تضعه . كل هذا كانت تعرفه (مانوليتا) ، علمتها اياه (تولا) التي استرعت انتباهها منذ الصغر حياة النحل ودرستها وأطالت التفكير فيها ، وحتى انها حلمت أحلاماً عنها . ومن الكلمات ذات المغزى الصميمي التي تعلمتها من الخالة ، وكانت من حين لآخر تطلقها على أخوتها عندما كان يبدو منهم ما يدل على الذكوره كلمة هي : « صه يايعسوب » . وكلمة يعسوب كانت تعني لديها ما كانت تعنيه لدى الخالة ، وهو معنى واسع الدلالة عميقها . معنى كان أخوتها يتكهنون به .

كان الاتحاد وثيقا بين (الفيرا) ابنة (راميرو) الأول التي كلفت (روزا) زوجته الأولى حياتها ، وبين (انريكي) ابن خطيئة ذاك وابن ربيبة الملجأ . كان هذان الأخوان غير الأشقاء يحب أحدهما الآخر أكثر مما يظهر لدى أي واحد من الخمسة الآخرين . كانا على الدوام يتساران ويتهامسان فيما بينهما . وكان هذا يقلق بال (مانوليتا) اذ قد يعتبر نوعاً من الدسائس . لم يكن يؤلمها أن تبلغ المودة ذورتها بين من حملته أحشاء أمها وبين من حملته أحشاء أم غيرها من أخوتها . كانت تشعر ان ما من أحد من أخوتها يرغب في التقرب منها ، وكان

هذا يسرها . وكان ذلك التعلق الذي يتعدى حدود الأخوة يثير اشمئزازها.
قالت لهما ذات مرة :

– أتمنى أن يعلق أحدكما في شباك الحب . أن تكون لك أنت خطيبة (يا انريكي) . أو أن يكون لك خطيب (يا الفيرا) .

– ولماذا ؟ – قالت هذه تسأل .

– كي تقلعا عن هذه المسيرات يتأبط احدكما ذراع الآخر في البيت . وتتبادلان الهمس والأسرار ، ويتملق أحدكما الآخر..

– واذن يكون ما هو أكثر . – قال (انريكي) .

– وكيف هذا ؟

– لأن هذه تأتي فتبوح لي بأسرار عريسها . أليس كذلك (يا الفيرا) ؟ وأنا أقص عليها أسرار عروسي .

– أجل . أجل ... – هتفت (الفيرا) على الفور وكأنها تصفق .

– وتضحكان معاً من العريس الآخر ، والعروس الأخرى . أليس كذلك ؟ ... ياما أحيلاه .

– حسن ، وما عساها تقول الخالة عن هذا – قالت (الفيرا) تسأل وقد صوبت نظرتها الى عيني (مانوليتا) .

– ستقول انه لا ينبغي اللعب بالأشياء المقدسة ، وانكما صبيان ...

– ولكن ألا ترددين مع الخالة ما ورد في الانجيل المقدس انه ينبغي أن نكون كالأطفال كي ندخل ملكوت السماء . – قال (انريكي) معارضا .

– طفل . أجل . صبي . . كلا .

– وبأي شيء يتميز الطفل عن الصبي ؟ ...

– بماذا ؟ بطريقة اللعب .

– وكيف يلعب الصبي ؟

– يلعب الصبي كالكبار . والأطفال ليسوا كالكبار سواء الرجال منهم والنساء . انهم كالملائكة . اذكر انني سمعت الخالة تقول انها سمعت بوجود لغة لا يذكر فيها الطفل ولا يؤنث ، وانما هو محايد ...

– أجل . – قال (انريكي) – أنها اللغة الألمانية . والآنسة محايدة ...

– ولكن هذه الآنسة ليست محايدة ... قالت (مانوليتا) محاولة أن تزود كلماتها بابتسامة ، لكنها لم تنجح .

– واضح انني لست محايده . لا ينقصني غير هذا ...

– حسن . ولكن كفى صبيانيات .

– صبيانيات كلا . ولدنات نعم . أليس كذلك ؟

– هو كذلك .

– حسن . وبماذا تعرفها ؟

– يكفي . فأنا غير راغبة في المزيد من الكلام . ولماذا ؟ لأن هنالك أشياء اذا نحن حاولنا قولها فان الغموض يكتنفها ...

– حسن ، حسن (تيتا) – هتفت (الفيرا) وقد عانقتها وقبلتها – سوف لن تستائي ....

– صحيح ، أنت لا تستائين (يا تيتا) ؟

– كلا . وأقل من ذلك اذا دعيتيني (تيتا) .

– كان ذلك مني عن غير قصد .

– أعلم ذلك . وهنا يكمن الخطر . لأن القصد يأتي بعد ذلك ...

وداعب (انريكي) شقيقته ، ثم تأبط ذراع أخته الأخرى ، أخته من الأب وذهبا معا .

وأضافت (مانوليتا) تقول وهي تنظر اليهما وهما ذاهبان : صبيانيات ، فعلا صبيانيات . ولكن هل أحسنت في قول ما قلته لهما ؟ هل أحسنت يا خالة ؟ — كانت تستنجد فكريا بالخالة .

— القصد يأتي فيما بعد ... ألست أنا التي سترشدهما بتعاليمها الى القصد الذي ينقصهما ؟ ولكن كلا . كلا . أن لا يلعبا هكذا . لأنهما يلعبان ... أو يلهوان ... وعسى أن يظهر عريسها وعروسه .

— ٢٥ —

كان المجمع العائلي الآخر يتألف ليس من (روزيتا) (وراميرو) وانما من (كاريداد) زوجة هذا ومن ابنة حميها . ومع ان (روزيتا) هي التي كانت تبحث عن (كاريداد) حاملة اليها شكواها ، ومخاوفها ، وتكهناتها ، وبوجه الأجمال كانت تأتيها شاكية . كانت تظن ، أو على الأقل ، كانت تظهر انها تظن انها هي المحتقرة وغير المفهومه . وتبدو حزينة منشغلة البال ، مترقبة أن تسأل عما بها . وبما ان أحداً لم يكن يسألها ، لذا كانت دائمة الألم . (ومانوليتا) التي كانت أقل أخوتها تساؤلا عما بها ، كانت تقول : « اذا كانت تشكو من شيْ حقيقي أكثر من الرغبة في ان تدللها ، ونعني بها بصورة خاصة فذلك مزعج » . وهذا ما كان يؤلمها .

وكانت تأتي الى (كاريداد) زوجة أخيها شاكية زوجها أي

أخاها ، وتصفه بالكبرياء . وكانت الزوجة تصغي اليها بصبر دون أن يكون لديها ما تقوله لها .

– لا أدري (يا مانولا) ما فعله بالنسبة (لروزا) ... في كل يوم تأتيني شاكية من (راميرو) وتصفه بالكبرياء والانانية والاستخفاف.

– وافقي على كلامها . وقولي لها . صحيح ما تقولين .

– ولكن كيف ؟ ألتزويدها بأجنحة ؟

– كلا . ولكن كي تقصيها .

– ولكني لا أفهم . وفضلا عن ذلك فهذا غير صحيح . (فراميرو) ليس كذلك .

– أنا أعرف ذلك . أنا أعرف ذلك جيدا . أنا أعلم انه قد يكون (لراميرو) بعض الهنات كغيره من الرجال .

– وكذلك كل امرأة .

– هذا واضح . ولكن هناته هنات رجل ...

– هيا . كاليعاسيب .

– كما تريدين . هنات (راميرو) هنات رجل ، أو ان شئت فكاليعسوب ...

– وهناتي ؟

– هناتك أنت (يا كاريداد) ؟ هناتك هنات الملكات .

– حسن جدا . وليس الحالة ...

– ولكن هنات (راميرو) ليست كما تذكر (روزا) . فهو ليس متكبرا أو أنانيا ، أو مستحقا .

– ولكن كيف أوافق على كلامها كما قلت ؟

– لأناك بهذا تعاكسينها . أعرف ذلك جيدا . أعرفه .

وذات صباح اجتمع الثلاثة (كاريداد ، مانويلا ، وروزا) ، فبدأت هذه هجومها وقالت :

– في أي ساعة من الليل يعود زوجك الى البيت ؟

وعندما كانت تتحدث الى زوجة أخيها لم تكن تقول عن (راميرو) « أخي » وانما زوجك .

(كاريداد) – وأي شرفي هذا ؟

(مانويلا) : وكنت آنئذ مستيقظة (يا روزا) .

(روزا) . – لقد أيقظني وصوله .

(مانويلا) . – صحيح ؟ آه ؟

(كاريداد) . – يكاد أن لا يوقظني ...

(روزا) . – يا له من هدوء .

(مانويلا) . – تنام (كاريداد) واثقة . وحسنا تفعل

(روزا) . – حسنا تفعل ؟ ... حسنا تفعل ؟ ... لست أفهم .

(مانويلا) . – ولكن أنا أفهم . ويبدو انك تسرين بهذا . في حين هي لعبة خطرة جدا ، وقبيحة أيضا ...

(كاريداد) . – اكراما لله (يا مانويلا) .

(روزا) . – دعي الحالة : دعي ... الحالة .

(مانويلا) . – بمثل اللهجة التي تحدثت فيها أصبحت انت الحالة هنا ...

(روزا) . – أنا ؟ أنا الحالة ؟

(مانويلا) . – أجل أنت . أنت ، أنت (ياروزا) . الي ما تعود اثارة غيرة أختك ؟

(كاريداد) . — ولكن (روزا) لا تقصد أثارة غيرتي (يا مانويلا) ..

(مانويلا) . — أنا أعرف ما أقول (يا كاريداد) .

(روزا) . — أجل ، هي هنا تعرف ما يقال ...

(مانويلا) . — نحن هنا نعلم ما نريد أن نقول : وأنا أعلم ما أقول . أفهمت (يا روزا) ؟

(روزا) . — تلك لازمة الحالة ...

(مانويلا) . — ليكن . وأقول لك انك على استعداد لقبول أسوأ عريس يتقدم منك وأن تتزوجيه ليس الا لتحركه كي يثير في نفسك الغيرة لا أن تثيريها في نفسه هو ...

(روزا) . — أنا أتزوج ، أنا أتزوج ؟ أنا عريس ؟ النزوة ...

(مانويلا) . — أجل أنا أعرف ما تقولينه ، وان كنت لا أعرف ما تنوين ، انك سوف لن تتزوجي ، وانك لا تفكرين بالعريس ... وانك تفكرين في أن تصبحي راهبة ...

(كاريداد) . — وكيف عرفت ذلك (يامانو يلا) ؟

(مانويلا) . — آه . أتحسبين انني لا أستطلع أسراركن ؟ بالتأكيد لأنها أسرار .

(روزا) . — حسن ، واذا فكرت في أن أكون راهبة فماذا ؟ أي شر في خدمة الله ؟

(مانويلا) . — ما من شر في خدمة الله ... ولكن اذا كنت ستدخلين سلك الرهبنة فسوف لن يكون لخدمة الله ...

(روزا) . — كلا ؟ اذن لما يكون ؟

(مانويلا) . — كيلا تخدمي الرجال ... والنساء ...

(كاريداد) . — ولكن اكراما لله (يا مانويلا) . ما هذا الذي تبدين ؟

(روزا) . — لها أشياؤها ، ولي أشيائي ... ومن قال لك يا أختي أن ليس بالأمكان خدمة الرجال في الدير ؟

(مانويلا) . — بلا شك . عن طريق الصلاة من أجلهم ...

(روزا) . — اذن الأمر واضح . بالتوسل الى الله أن يجنبهم الغواية ...

(مانويلا) . — يبدو لي أنك في صلاتك « جنبني الغواية » أكثر رغبة من « جنبنا الغواية » ...

(روزا) . — أنا أرجو أن لا أقع في الغواية .

(مانويلا) . — ولكن ألم تأت الى هنا لاغواء (كاريداد) أختك ؟ أم كنت تحسبين ان تلك ليست غواية . ألم تأت لتغويها ؟

(كاريداد) . — كلا . (يا مانويلا) انها لم تأت لهذا . وفضلا عن ذلك فهي تعلم انني لست غيورة . وانني لن أكون كذلك ولا أستطيع أن أكون ...

(روزا) . — دعيها ، دعيها (يا كاريداد) . دعي النحلة تعقص ... دعيها تعقص ...

(مانويلا) . يؤلم . هيه ؟ يا بنية حكي ...

(روزا) . — بنية الآن هيه ؟

(مانويلا) . — دائما أخت .

(روزا) . — قولي لي يا أختي النحلة . ألم تفكري في وضع نفسك في خلية من قفير ؟ ...

(مانويلا) . — قد يمكن صنع عسل وشمع في الدنيا .

(روزا) . — وعقص .

(مانويلا) . — صحيح وعقص .

(روزا) . — هيا — أجل ، أنت كالحالة (تولا) . ستصبحين خالة ...

(مانويلا) . — أنا لا أدري ما سيكون مني . ولكن . اذا حذوت حذو الحالة فلن أكون قد سلكت أسوأ سبيل . أو تظنين انها أخطأت سواء سبيلها ؟ وهل نسيت تعاليمها ؟ وهل حاولت هي أن تبذر بذور الشقاق بين أهل البيت ؟ وهل اشتكت مرة من عمل أخوتها ؟

(كاريداد) . — أستحلفك بالله (يا مانويلا) ، وبذكرى الحالة (تولا) أن تسكتي ... وأنت(يا روزا) لا تبك هكذا ... هيا ارفعي هذا الجبين ... لاتستري وجهك بيديك ... لاتبك هكذا يا بنية . لاتبك هكذا ...

فوضعت (مانويلا) يدها على كتف أختها لأبيها وقالت لها بصوت كأنه قادم من العالم الخالد ، من العائلة الخالدة :

— سامحيني يا أختاه ... فقد أسرفت ... ولكن تصرفك جرحني في صميم العائلة ، وقد قمت بما أظن ان الحالة كانت ستقوم به في مثل هذا الموقف ... سامحيني .

فألقت (روزا) نفسها بين ذراعيها مخفية رأسها بين ثديي أختها وقالت لها وهي تجهش بالبكاء :

— أنت التي يجب أن تسامح يا أختي . أنت ... أختي ... كلا ... وانما أم ... أمي ... خالة ، خالة .

— هي الحالة ... الحالة . الحالة (تولا) التي يجب أن تسامحنا ، وان توحدنا ، وأن تقودنا جميعا . — هكذا أنهت كلامها (مانويلا) .

٣٠٠٠٠ ط١/١٠/١٩٩٣



الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

سعر النسخة داخل القطر
٦٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
١٢٠ ل.س